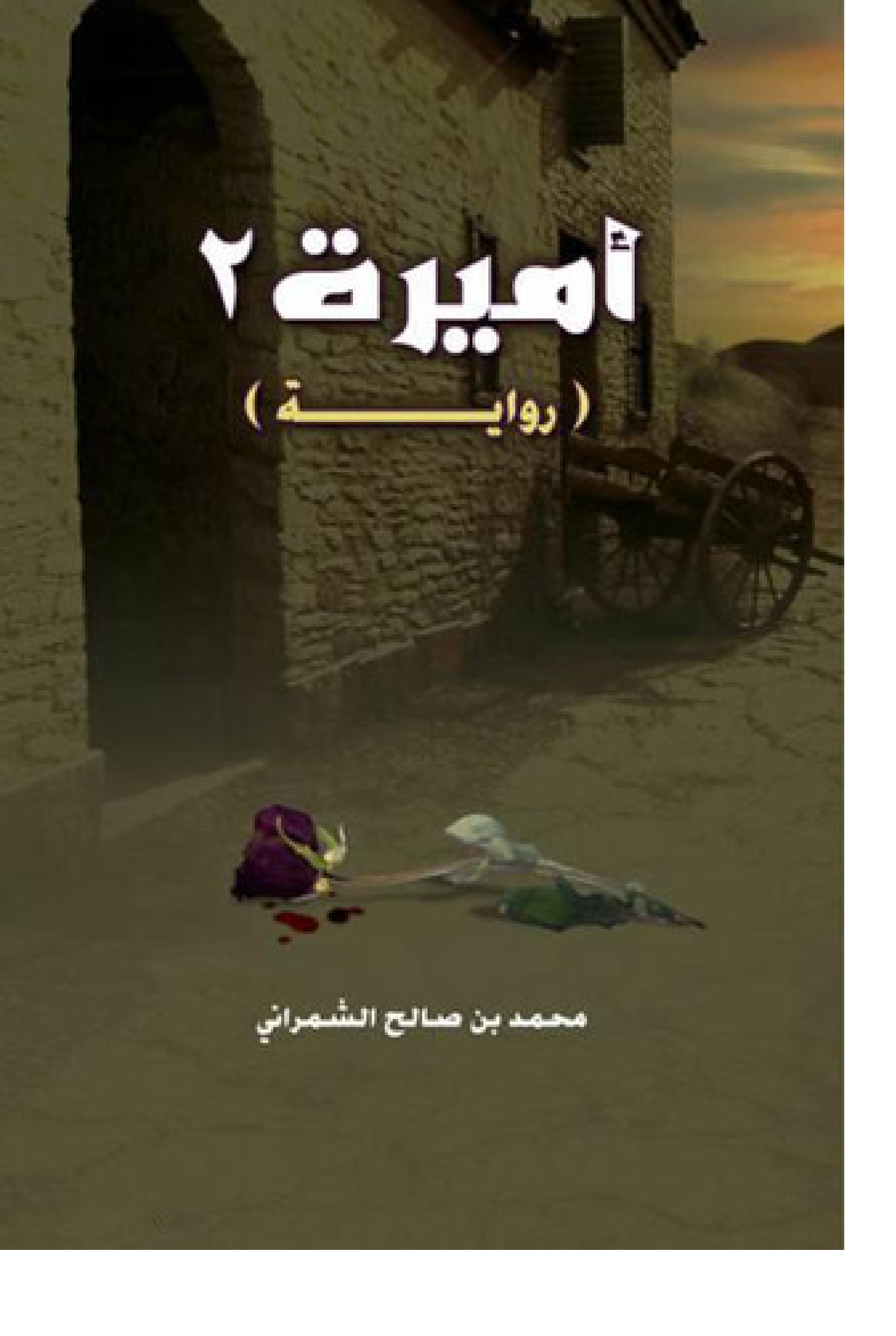
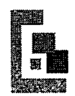


أميرة ٢
(روايـــة)
محمد بن صالح الشمراني

محمد بن صالح الشمراني

أميـرة ٢

(روايـة)



منتدى المعارف
alMaaref Forum

جميع الشخصيات الواردة في هذه الرواية هي من نسج الخيال ولا تمت للواقع بصلة وأي تشابه في الأسماء أو الأحداث هو صدفة ليس إلا .

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٠

منتـدى المعـارف

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٥٢٨٥ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٣٩٨٧٨ (١-٩٦١)

تنبيـه

انتهيتُ من كتابة هذه الرواية في منتصف عام ٢٠٠٧، وحصلت على المركز الأول في مسابقة أجمل رواية، والتي أقامتها مشكورة مجلة **البيان** اللندنية.

وحينما شرعتُ في زف وليدتي الأولى للنشر، والارتماء بشوق بين أيدي القراء.. حدث ما لم يكن بالحسبان!

فتأخر صدورها أكثر من ثلاث سنوات، وذلك بسبب حُجبٍ ثلاثة، لم يكن لي إزاءها حولٌ ولا قوة!

محمد

إهـــداء

بمدادٍ من حياء..!

أَمدُّ إليها يدي، وأدسُّ روايتي البكر في حقيبتها، وأَرحل!

أَرحلُ.. قبل أن ينزف قلبي وقلبها، وتدمَى روحي وروحها!

إليها..

أميرة بنت سعدون الحارث.

محمد

mohd@alshamrani.com

فاتحـــة

لم يعد يفصله عن جامِعِهِ سوى خطوات، كان يَشُم «رائحةً» بات يألفها تماماً، تمتزج بسكون السَّحر، وتختلط بنسماتٍ وُئدت في مهدها.. ومن ذا الذي يعيش في العراق ولا يألفها؟!

اقترب من الجامع، الرائحةُ تَزكم أنفه، كان يقلِّب ناظريه ذات اليمين وذات الشمال، مسح المنطقة سريعاً بعينيه.. المئذنة، القُبَّة العتيقة، الدور المحاذية، لا أثر لأي شيء!

في قلبه وخزٌ يُخيفه، ويُنذره بوقوع مكروه، أنفه لا يكذب، فقد جرّبه مراراً.. تمنى من كل قلبه أن يكون كاذباً هذه المرة!

مؤذِّن الجامع الكبير بحيّ الحارثية شمالي بغداد.. كان كعادته يترنّم بأدعية وتسابيح، مُنقِّلاً خُطاه صوب مئذنته التي أصبح يحسبها في عِداد أبنائه، يَخرج لرفع نداء الفجر باكراً، يستمتع كثيراً بأن يكون أول من يبدّد صمت الكون بحدائه.. إلا أن هذا اليوم لن يمر عليه بشكلٍ عادي!

الرائحة تزداد قوة، وعيناه تشخصان! لم يكن يصدّق ما تبصره عيناه!

بالكاد استطاع بعد لأيٍ أن يبتلع ريقه، اختنقت أنفاسه في صدره!

نظر حوله، لم يجد أحداً، الطُرقات مقفرة، تلفها الظلماء، كل شيء نائم، حتى الهمس.. لم يكن له أثر!

أراد أن يصرخ، أن يتماسك، أن يتجلد.. خانته خبرة السنين أمام الفاجعة!

رآهم.. بعينٍ تتماوجُ بين الحقيقة والخيال!

..، أمام مدخل الجامع؛ كانت جثثُ ستةٍ من (شباب الحي) تتناثر من دون ترتيب!

كانوا شبه عراةٍ إلا من يَسيرِ لباسٍ يستر سوآتهم، قُتلوا جميعاً بالطريقة نفسها؛ طلقةٌ في داخل تجويف العين اليسرى، وأخرى فوق السُّرة بقليل.

آثار التعذيب الوحشي تظهر على أجسادهم، كدماتٌ زرقاء، بقايا حروقٍ ظاهرة، جراحٌ لم تلتئم بعد.. لا بد أنهم قد عانوا كثيراً حتى فارقوا الحياة!

اقترب من الجثث.. لم تكد تحمله قدماه، نظر إليهم نظرةَ حزن ووجل، لم ير في حياته مشهداً كهذا، هؤلاء الشباب.. يعرفهم، ويعرف كل تفاصيل حياتهم، لم يكونوا يستحقون الموت بهذه الطريقة البشعة!

لاحظَ أن أحدهم وُضع بطريقة مقصوده؛ رِجلاه مربوطتان بباب الجامع، وجذعه مُنكّسٌ نحو الأرض، وقد تراءت سوءَته، اتجه نحوه، جحظت عيناه، بادر بستر عورته، وجد رسالةً موثقة على بطنه العاري، يداه ترتعشان من هول ما يراه، تناول الرسالة.. وفؤاده هواء، كُتب عليها بخط عربي مبين:

«هكذا نتسلى بمن يؤذينا.. ٢٤ ساعة أمامكم لتسليم كلابكم المسعورة!».

١

كانت **أميرة** تحاول إصلاح فانوسٍ عتيق بين يديها، فتاةٌ عشرينية.. عبَّت البؤس في سِني الحرب والحصار حتى سكرت، وبات يُعرف أثر ذلك في عينيها، قاست ويلات اليُتم والحرمان.. وهي لم تزل في مهد صباها، ماتت أمها في قصفٍ صاروخي لوحوش الاحتلال، فأضحت وحيدةً إلا من خيالات الحزن والهجران!

ازدهرتْ أسواق الفوانيس في العراق، فالكهرباء أصبحت إرثاً أسطورياً من الماضي، خمس ساعات في اليوم.. معدل بقائها.. فقد استأثرت قصور الرئاسة وقوى الأمن بالبقية الباقية منها!

درجة الحرارة في بغداد هذا الصيف لا تطاق، الأرض تحترق، وكل شيء يحترق، خمسون درجة مئوية.. تغلي منها الأدمغة، أما أجهزة التكييف.. فقد صارت عَييّة لا تقوى على شيء!

وضعتْ أميرةُ الفانوسَ على طاولتها، كم تمنتْ أن تضع همومها وأحزانها معه، فهي ترى كل بِناءٍ من حولها ينهار، ويستحيل حطاماً، البشر يفنون، والبهائم.. وحتى براءة الأطفال!

جالت ببصرها في أنحاء حجرتها الصغيرة، كانت أنيقةً في بساطة، مرتبةً بأنوثة، يظهر أثر ذلك في عنايتها بتنسيق أثاثها المتواضع، وإضفاء لمسة جمالية عليه.. رغم قلة ذات اليد،

خفق قلبها بشدة وهي تسمع نداءات أختها الصغيرة **فاطمة**، كانت تطرق الباب بلهفة وتصميم: «**كريم وصل.. كريم وصل!**»

كما توقعتْ؛ جاءها في الوقت المحدد، لم يكن يتأخر عن أي موعدٍ يضربه معها، ثلاثة أشهر منذ عَقْدِ قرانهما، حالمةً كانت، وسريعةً في انصرامها، نزلتْ من عُلِّيتها، صافحته بحياءٍ لم تستطع إخفاءه.. كعادة الحرائر في العراق.

دائماً ما تكون مثل هذه اللقاءات ساخنة جداً، ومندفعة جداً.. ولولا الحياء الذي يُظللها لبارت منذ أول يوم!

« **أميرتي..**»، كان يُعاني ألماً في قلبه، وجعُ القلق يَزْحمه، ويَسْتدرُّ أحزانه: «**كل الأمور على ما يرام، بعد شهر سيتم زفافنا إن شاء الله**»، تغيّرت نبرةُ حديثه، واتشحت برداءِ حزنٍ عتيق.. حين أضاف: «**.. هذا إن لم تحدث مفاجآت!**»

«**حفظك الله يا كريم، وسلّمك من كل مكروه**»، قالتها بمرارة، فهي تعلم أنه يعني ما يقول، فربما تحدث مفاجآت تئد فرحتها.. وما أكثرها في العراق!

تسمّرتْ عيناها بعينيه، وحدثته بهما حديثاً بليغاً، لغة العيون.. وحدها التي تستطيع إيصال ما في القلوب من غير نفاق أو مُصانعة!

تحرص دائماً على إيثاق عُرى الأبواب، فالحديث أحياناً يتخذ طابع الخصوصية، ولا تريد أن تقع في أخطاء قد تكلفها الكثير.

ناولته كأس عصير طازج قد صنعته خصيصاً له، وقالت: «**كريم ما هي آخر الأخبار؟!**»

أجابها بصوتٍ هامسٍ رقيق: « **جميع الإخوة متفائلون جداً، وربما**

تلحظين كثرة الضحايا في صفوف العدو.. ولله الحمد، وما زال في جعبتنا الكثير».

التفتَ يمنة ويسرة، تأكد من خلو المكان من أي فضولي.. ثم قال: «**عصيرُ برتقال لذيذ**»، وغمز لها بعينٍ تحمل كل تواصيف الهوى والغرام، اقترب منها، ثم...

طُرق البابُ طرقةً واحدة!

..، وقُطِع أثيرُ الحب الذي كان يَسري بينهما، فأضحى تائهاً بين الدروب، كل الناس طُفيليون، وأشعبيون، ومُغفّلون.. حينما يتجرَّأون على إفساد أثيره، أو استحلال حَرامه!

كعادتها.. هُرعتْ فاطمة لاستقبال الطارق، أقسمتْ بألا يفتح الباب سواها، فضول الطفولة يتلبّسها أينما حلّت.

اختلستْ أميرةُ النظر من النافذة، تعجبتْ، فتاتان عراقيتان بالباب، الأصباغ تملأ وجهيهما، لبسهما مثير، ومن خلفهما سيارة «جيب»، كانت من دون لوحة أرقام، توجستْ خِيفة، إذْ لم يعتادوا على استقبال غرباء من دون موعد، بالإضافة إلى أن والدها غير موجود، ربما يكون زوجها هو الهدف، هل تتبعوا أثره، وجاؤوا لاعتقاله؟!

«**كريم.. لا بد أن في الأمر ريبة، تعال معي**»، قالت أميرة بتردد ظاهر.

أحست أميرة بحرارة الخوف تسري فيها، وتتملك جسدها كله، غشيتها سحائب فزع قاتمة، لم تعتدْ على مجابهة مثل هذه المواقف الصعبة: «**يا رب احفظنا منهم**»، تمتمت أميرة.

اقتادت كريم إلى حجرة والدها، دلته على سلاحه، استطاعت تذكر مكانه بصعوبة، كانت تضطرب في مشيتها: «**لا بد أن يكون كريم مسلحاً.. فربما يحتاج إليه!**»، حدثت نفسها.

اختلطتْ أفكارها، وتلقفتها وساوس مقلقة، هل حقاً قدِموا لاعتقال كريمها، لم تكن تصدّق ذلك، ألم يكن حريصاً في احتياطاته الأمنية.. إلى حد المبالغة أحيانا؟! اجتاحتْ مخيلتها صورة كريم، لا يمكن أن يستحق وجهه المشرق ويلات الاعتقال! كانت دوماً تستحضر صورته وتحلّق معها، وجهه وسيم للغاية.. على الأقل في عينيها!

«**صباح الخير**»، قالت إحدى الفتاتين لأميرة، كان الوقت عصراً!

«**أنا يارا، وهذه زميلتي لطيفة، يبدو أن حضورنا فاجأكم قليلاً، نعتذر أشد الاعتذار**»

«**لا أبداً.. مرحباً بكما، تفضلا**»، ردت أميرة، وقادتهما إلى غرفة الضيوف، كان عقلها يعجّ بأسئلةٍ مفزعة، وأفكار متشائمة!

«**يا رب.. خلصني منهما!**»، تمتمت أميرة.

أخرجتْ يارا مطبوعاتٍ من حقيبتها، تحمل اسم شركة «نيو لوك»، عرضتها على أميرة: «**هذا منشور مختصر يُبين منتجاتنا الرئيسية، نعمل في مجال التجميل والزينة النسائية، نحن مندوبَتا تسويق، قدِمنا لتعريفكم بمنتجاتنا، ولطرح بعض الأسئلة البسيطة عليكم، طبعاً.. إن كنتم لا تمانعون**».

ابتسمتْ يارا معلنةً انتهاء مقدمتها الدعائية، رقيقةً كانت، جميلةَ الملامح، تُجسد أنوثة المرأة العراقية، هدأتْ حدة هواجس أميرة نحوهم، وبدأت في مناقشتهم حول منتجاتهم، رغم أنها ما زالت تنظر إليهما بعين الريبة والحذر.

..، وبعد حديث تفصيلي؛ سألتْ أميرة: «**أين يقع مقركم الرئيسي، فلم أسمع من قبل بهذه الشركة؟**»

عادت توجّساتها إليها، خصوصاً وأنها لم تجد إجابة واضحةً لسؤالها!

«أميرة تعالي.. تعالي!»

نادتها أختها فاطمة، سنواتها السبع علّمتها الخوف والرهبة، كانت تبكي، وتُخفي في نفسها أمراً!

«أميرة.. أميرة.. جاءت سيارة ثانية، إنها عند الباب، كل الرجال فيها مسلحون، كانوا يحاولون إخفاء سلاحهم، لكنني رأيتهم بعيني، أقسم بالله.. أنا لا أكذب، أنا خائفة عليك وعلى كريم، لن أسمح لهم بأخذكما!».

٢

كانت سيارة من نوع **وانيت (بيك أب)** تقترب من نقطة التفتيش الرئيسية التي تربط بين حيّ الحارثية وبين بغداد، يستقلّها شخصان عراقيان، يبدوان في منتصف العشرينات.

القوات الأمريكية تتولى إدارة المنطقة بمعاونةٍ من الجيش العراقي، الحواجز الإسمنتية تحيط بمركز القيادة.. احترازاً من أي هجوم فدائي، عُرفتْ هذه النقطة بإيذاء المواطنين، يكرهون المرور بها، حَدثتْ بها مجزرةُ إبادةِ تلك العائلة العراقية، ستة أفراد، كانت حادثة شهيرة، خلّدت معنى الأخطاء (غير المقصودة)!

الجميع على أُهبة الاستعداد، حالة الطوارئ في مستواها الأعلى، جبهةٌ قتال كاملة.. القنّاصة، المدرّعات، أجهزة كشف المتفجرات، إضافة إلى حرارة بغداد الكاوية.. والخوف من (المجهول) الذي قد يخرج من بين الآلاف ليفعل فعلته!

اقتربت السيارة من نقطة التفتيش، صوت المسجل يصدح بأغنية غربية مشهورة، والرجلان يتمايلان على وقعها، كانت نقطة التفتيش شبه خالية من السيارات، أشار الجندي الأمريكي إليهما بالتوقف، توقّفَا، طَلب منهما إثبات الشخصية، أمرهما بفظاظة أن يترجّلا من السيارة، كان يقف بجواره أحد الجنود العراقيين، يبدو في حالة استعدادٍ وترقّب، أمره الجندي الأمريكي أن يفتش السيارة بشكل دقيق!

قال السائق للجندي الأمريكي بلغة إنكليزية مُتقنة: «**بغداد لا تطاق في الصيف، أليس كذلك؟**»

أشار برأسه موافقاً، فلم يكن يرغب بالدخول معه في حديث جانبي، حدثته نفسه: «**هؤلاء العرب.. ثرثارون.. وقذرون أيضاً**»، رمق السائق بنظرة فاحصة.. امتدت من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه.. نظرةَ حذرٍ.. وازدراء!

«**لا بد أنكم تبذلون جهداً كبيراً من أجل حمايتنا**»، أردف السائق، ثم أخرجَ علبة بيبسي باردة، وناوله إياها: «**هذه هدية بسيطة، لدينا الكثير**».

«**شكرا لك**»، أجاب الجندي، وقد بدا أكثر مرونة، تناولها بامتنان، فشمس بغداد تُلقي بحممهما على كل شيء، فتح علبة البيبسي.. وشرع في شربها بنَهم، بينما كان الجندي العراقي يراقب الموقف بحذر شديد.

قال السائق وهو يمسح آثار الأكل عن فمه ويديه: «**صحيح أن بغداد ليس فيها ما يدعو للبقاء، إلا أن نساءها يُعرفنَ بإجادة الطبخ، فهذه الأكلة..** »، وتناول طبقاً من سيارته: «**نسميها دولْمة، وهي كما ترى ورق عنب محشو بالأرز واللحم المفروم**»، أخذ واحدةً منها وشرع في أكلها أمامهم، كانت قاعدةُ الطبق كبيرة نسبياً، من تلك الأنواع التي تكون مجوفة من الداخل، وسطحها مرتفع قليلاً، وأضاف: «**هذا الطبق من صنع والدتي، هي تبلغ من العمر ستين سنة، إلا أنها ما زالت طباخة ماهرة**».

رد الأمريكي: «**شكراً لك**»، وتناول واحدة منها، ثم قال: «**فعلاً.. إنها لذيذة!**»

فرح السائق كثيراً، وقال: «**نعم إنها كذلك، فوالدتي مشهورة**

بصناعتها، ولأنها أعجبتك.. فأرجو أن تقبل الطبق هدية مني، أنتم تبذلون جهداً كبيراً في الذود عن أمننا، وهذا من واجبنا تجاهكم، أرجو أن تقبلها»

«**جأفر.. جأفر**»، كان الجندي الأمريكي ينادي جعفر، أحد الجنود العراقيين، أمره أن يأخذ الطبق، ويوصله لغرفة الاستراحة لحين قدومه.

ناوله الطبق، ثم أردف السائق: «**في المساء سأعود لأخذ الطبق بعد فراغكم منه، فستحاسبني والدتي في حال فقدانه**»، وابتسم.

تعجب الأمريكي من هذه الهدية المفاجئة، إلا أنه كان جائعاً، ولم يتناول وجبة الغداء بعد، شكره كثيراً.

«**ستفخر والدتي كثيراً إذا علمتْ بأن الذائقة الأمريكية أُعجبت بوجبتها، شكراً لك، نراك لاحقاً**».

غادرت (البيك أب) نقطة التفتيش، وابتعدت كثيراً.. حتى غابت عن الأنظار.

كان الجندي الأمريكي ممتناً للكرم العربي الأصيل، كان يسمع عنه سابقاً، وها هو الآن يراه في مثال واقعي: «**أنا مشغول قليلاً، تعال الزم الحراسة بدلاً عني، سأعود بعد دقائق**»، قال ذلك بلهجة آمرة لأحد الجنود العراقيين.

كانت رائحة الطعام شهية جداً، سيلتهمه في «غرفة الاستراحة» من دون أن يشاركه أي أحد.

وفي هذه اللحظات..

تسارع الزمن بشكل مفاجئ، وتداخلت الأشياء، واختلطت تواصيف الحياة، لم يدرك أي أحد حقيقة ما يجري، كأنهم في

حلم، أو خلف شاشة فضية، الصرخات تتوالى، والفزع ينتشر كالهشيم!

سَمع الجميع صوتاً يعرفونه تماماً، دبّ الرعب في قلوبهم. .

صوت صاروخ يوشك أن يقع!

كيف يمكن أن يحدث مثل ذلك؟! المكان محصّن بشكل جيد، وتحميه منطقة صحراوية مكشوفة! بالإضافة إلى أجهزة الإنذار المبكّر! لماذا لم تُطلق صيحاتها؟! هل استطاع أحدهم أن يصل إلى مركز التحكم. . ويقوم بتعطيلها؟!

تشبّث الذعر بالأجساد، واختلط بها، القلوب خاوية من كل شيء. . إلا من الرعب، فقد عبّت منه حتى أُترعت، ثم فاضت!

الصاروخ الأول يقع مباشرة على (غرفة الاستراحة)!

عمّت الفوضى أرجاء المكان، زادت حدة الصرخات، ونداءات الاستغاثة، أحد الجنود كان يبكي من هول ما يراه!

صوت الصاروخ الثاني يقترب. .

لحظات. .

ينفجر بجوار الأول، صوته كان مدوياً.

«**سارعْ بطلب النجدة! اطلبها من القاعدة بسرعة! نحن تحت قصف صاروخي! العميد وليام! اتصل به مباشرة!!**»، قالها قائد الفرقة الأمريكية لمنسّق الاتصالات.

كانت غرفة الاستراحة تحترق، تحطمت على من بداخلها، الصاروخ الآخر سقط على سيارة همر أمريكية، لم يكن بداخلها أحد.

. . ، صوت الصاروخ الثالث يقترب، الفوضى تزداد، لا يعلمون من

أي جهة سيأتي، الجنود يهربون إلى حيث لا يدرون، توالت الصواريخ، بلغت ستة صواريخ، ابتعد بعضهم عن مركز القيادة، كانت تستهدفها، ضرباتها دقيقة بشكل كبير!

توقف القصف فجأة، كانت صدمة موجعة، أصابتهم في مقتل، تشتت تركيزهم، أصيب الجنود بنوبة هلع قاسية، وهدأ المكان.. إلا من صوت الصراخ والأنين، والنيران التي تشتعل!

حلّقت مقاتلتان أمريكيتان من نوع (هورنت) فوق المنطقة، كانتا تمسحان المكان بشكل دائري.. بحثاً عن مصدر النيران.

أربعة جنود أمريكان لقوا حتفهم، بالإضافة إلى تسعة عراقيين متعاونين، الجرحى بالعشرات، ورائحة الدمار تملأ الآفاق، بعض الجثث تفحمت تماماً، وبعضها تناثرت أطرافها في كل مكان.

وصلت طائرات الإخلاء، كانت مزودة بفريق طبي متكامل، انشغل الجميع بلملمة الجراح، ومحاولة إخفاء الواقعة.. قبل أن تصل أعين الصحافيين الفضولية!

تركزت جهود الفريق الطبي على محاولة إنقاذ الجرحى الأمريكان، ونقلهم على وجه السرعة إلى القاعدة الأمريكية، أما القتلى فقاموا بتغطيتهم بأكياس معدة خصيصاً للجثث.. تمهيداً لنقلهم.

جاءت الأوامر بإقامة حزام أمني على المنطقة، بحيث يُمنع الدخول والخروج.

وفي غفلة من الجميع..

استغل أحد «الجنود» هذه الفوضى العارمة، وخطا خطوات يحفّها الحذر الشديد..

اقترب ببطء من إحدى الجثث الأمريكية المغطاة، كان يلتفتُ يمنة ويسرة، تأكد ألا أحد يراه.

انحنى نحو الجثة.. وكأنه كان يتأكد من هويتها..

ألقى نظرة فاحصة على وجه الضحية، نسخ صورته في مخيلته.. فحتماً سيلاقيه في مكان ما داخل القاعدة!

وفي غفلة عن الأعين.. أدخل قطعة معدنية صغيرة في أحد جِراح الجثة الغائرة!

..، قام بإخفائها بشكل محكم، ثم سارع بالقيام قبل أن يُكتشف أمره.. واندس بين الجنود العراقيين والأمريكان، وكأن شيئاً لم يكن!

٣

فكرتْ أميرة بأن تطردهما من البيت، لكن لا يبدو ذلك حكيماً، ستثير عدداً من المشكلات التي هي في غنى عنها، إضافةً إلى أن موقفها ضعيف.. فيقف خلف هذه الفتاة عدد من الرجال المسلحين، ربما ينتظرون إشارة منها، أما هي فمجرد امرأة.. لا حول لها ولا قوة!

خافت على نفسها وعلى كريمها، تمنتْ لو أن لها بهم قوة، أو تأوي إلى ركن شديد!

ما عاد الخوف يأبه كثيراً لقلوب العذارى! ولا عاد ينصب تماثيل الإجلال والتقديس لها! بل صار يقتحمها كما يقتحم غيرها، ويبطش بها.. ويسومها سوء العذاب!

عادت إليهما في حجرة الضيوف، كانت مشاعرها تتصارع، يجب ألا يظهر عليها الخوف، وإلا أفسدتْ كل شيء.

«**أرجو ألّا نكون سبّبنا لك أية متاعب؟**»، قالت يارا.

«**لا أبداً.. هذه أختي الصغيرة، كانت تلح عليّ في أمر طفوليّ، هكذا هم الصغار دوماً**»، ابتسمت أميرة بتصنع، وأضافت: «**لنعد إلى موضوعنا.. أين كنا؟**»، كانت أميرة تمسك طرف ردائها بشكل مبالغ فيه، وتضغط عليه بيدها، لاحظتْ ذلك.. فأرسلته: «**يجب أن أبدو واثقة من نفسي.. يا رب ساعدني**»، حدثت نفسها.

ردت يارا: «**أظن أننا أنهينا عرضنا الدعائي، وأرجو أنه نال استحسانك؟**».

«**بالطبع.. بالطبع.. أشكركما كثيراً**».

قالت لطيفة: «**نحن نقوم بدراسة ميدانية، للوقوف على حاجات المستهلك الحقيقية، ولا بد لنا من هذه الخطوة.. التي تبدو شاقة نسبياً، ولكن هدفنا هو إرضاء المستهلك**».

«**بالفعل.. جهد جبار**»، ردت أميرة.

أضافت لطيفة: «**ولكن قبل أن ننصرف**»، ونظرت إلى يارا في إشارة إلى أنها تشاركها الرأي: «**نرغب بأن نرى أدوات التجميل الخاصة بك ـ إن كنتِ لا تمانعين طبعاً ـ فدراستنا تشمل المقارنة بين الأدوات التقليدية، ومنتجاتنا الحديثة؟**»

«**أكيد.. أكيد**»، قالت أميرة، وهي تُغالب رعشةً تملكتها، واستشْرتْ في أطرافها، تمنتْ أنها اعتذرت منهما، ولكن قد فات الأوان: «**تفضلا.. حجرتي في الطابق العلوي!**».

سألتها يارا: «**كم عدد الإناث في عائلتكم الكريمة؟**»

«**أنا.. وأختي فاطمة فقط، والدتي توفيت قبل سنوات**»، وبدتْ أكثر حذراً في ردودها، كان عقلها يحلل كل كلمة تقولانها، ويشرع في تفسيرها بشكل مخيف!

«**رحمها الله**»

دخلوا الغرفة، أشارت أميرة إلى أحد الأدراج: «**هذه جميع أدواتي، أحتفظ بها هنا، أعلم أنها ليست كثيرة، ولكنها تفي بالغرض**». حاولتْ أن تبدو أكثر اتزاناً وعفوية، إلا أنها رغم ذلك لم تدعهما تغيبان عن ناظريها، لاحظتْ نظراتهما الفاحصة، كأنهما تُصوِّران

المكان، تبحثان عن شيء مخبوء، الأعوان ما زالوا في الخارج، كانت أميرة تنتظر لحظة الصفر.. اللحظة التي يعتقلونها هي وكريم، هواجسها لا تنتهي!

«**نشكركِ كثيراً، فقد أخذنا من وقتك الكثير**»، قالت يارا، وهي ترتب أوراقاً كانت تدوِّن فيها بعض الملاحظات.

تنفست أميرة الصعداء، سيغادرون أخيرا، أخذوا طريقهم نحو الطابق السفلي، سمعتْ أميرة الباب الخلفي للحديقة يُغلق، له صرير تألفه، لا بد أن أحدهم كان بالداخل، الخوف والثقة يتصارعان، والبقاء للأقوى، رافقتهما نحو الخارج، رأت السيارة الثانية تغادر بسرعة، تبادلت معهما ابتسامةَ الوداع، مصطنعةً كانت!

«**كريم.. كريم!**»، ردّدتْ بهمس.

هرعت صوب حجرة والدها، تبحث عن كريم، كادت تتعثر، وجدت الباب مفتوحاً، بحثتْ عنه تحت السرير، في دورة المياه الداخلية، في جميع أنحاء المنزل، كاد قلبها ينخلع، تفحصت جميع الأشياء، لا يبدو أن شيئا طالته يد التغيير!

تذكرت فاطمة، أختها الوحيدة، لم تصدق كيف نسيتْها، أحستْ برعشةٍ تدب إلى أطرافها، شعور الخوف لا يوصف، كادت تبكي، اختفى زوجها، وها هي تفقد أختها، لا تدري كيف غابت عن ناظريها، لطالما أوصاها والدها بها!

كان الباب يُطرق بشكل متتابع، سمعتْ ضحكات أختها فاطمة، سارعتْ نحوها، ضمتها بلهفة، لم تصدق عينيها حين رأت كريم بصحبتها!

«**حمداً لله على سلامتكِ يا أميرة!**»

اندفعتْ إليه، وهي لا تعلم ماذا يحدث حولها، كان رأسها يضج بعشرات من الأسئلة!

قال كريم: «**سأخبرك بكل شيء، ولكن قبل ذلك هل لي بتناول كأس شاي من يدك الكريمة؟**»

تعجبتْ من برودة أعصابه، وطريقته الواثقة في الحديث!

«**لنؤجل شرب الشاي لما بعد.. هلّا أخبرتني بما يحدث حولي، مَن هؤلاء؟ وأين اختفيت أنت وفاطمة؟**»، كانت نبرة حديثها حادة نوعاً ما، هي المرة الأولى التي تحادثه بهذه الطريقة، لطالما كانت تحاكيه همساً.. مهابة منه.. وحباً!

ابتسم لها وقال: «**ولكن ليس قبل أن تجلسي**»، أخذ بيدها وأجلسها إلى جواره، ثم قال: «**كنتُ أتأهب للحظة الاعتقال، كنت أظن أنهم جاؤوا لذلك، حتى جاءتني فاطمة**»، وأشار إليها: «**وأخبرتني بأن سيارة أخرى قد توقفت أمام المنزل، يستقلها رجال مسلحون، أخبرتني بأوصافهم، وبما قالته لك تلك الفتاة، طلبتُ منها أن تدلني على الباب الخلفي، خرجتُ للحديقة، كنت أراقب الوضع من هناك، متأهباً لأية مفاجآت، فقد عرفتُ القصة بأكملها!**»

كانت فاطمة معجبةً بأسلوبه المميز في الحديث، كان كأنه يسرد حكاية محكمة الفصول، أصغتْ إليه بجميع حواسها.

طلب كريم من فاطمة أن تُحضر له كأساً من الماء، لأجل أن يختلي بأميرة بعض الوقت، فيجب ألا ترهق طفولتها النضيرة بمثل هذه الأحداث المقلقة.

«**هل كُنَّ يَدَّعين بأنهن مندوبات مبيعات؟**»

«**نعم!**».

«هل سألوكِ إلى أي طائفة تنتمين؟ السنّة أم الشيعة؟»

«نعم سألوني، إلا أن ذلك كان في حديث جانبي، ولم يكن بشكل مباشر!»، أجابت أميرة في دهشة، وما زالت لا تستطيع فهم أي شيء!

«يبدوا أنهم يبحثون عن شيء ما، أو أنهم يخططون لعملية كبيرة!»، تسمرتْ عيناه بعينيها، وأردف: **«كبيرة جداً!»**.

«ولكن لماذا يفعلون كل ذلك، كانوا يستطيعون مداهمة أي منزل والتفتيش عما يريدونه».

أجابها: **«لست أدري، ولكن وردتْ إلينا معلومات عن قيام مجموعة مجهولة بمسح طائفي في أحياء قريبة، ويبدو أنهم وصلوا إلينا الآن!»**

قام من مجلسه، وهم بالانصراف..

«أميرتي!»

اقترب منها، وقد تيبّستْ كل ابتسامات الحب على شفتيه، وأصبحتْ قعراً بلا معنى، أطال النظر إلى عينيها.. ثم قال هامساً: **«حبيبتي.. كوني على حذر!»**

٤

أخذتْ شمس النهار تلفظ أنفاسها الأخيرة ببطء، وشرع الكون من حولها في التلفع برداءِ العَزاء الداكن، وحْدها الأطيار تتقافز فرحاً.. فحواصلها ملأى بالخيرات، لا تأبه بما يحدث تحتها من بلاء!

فقدتْ بغداد كثيراً من فتنتها ونضارتها؛ كطفلةٍ بهيةٍ سَرى البُهاق في وجهها، فأضْحتْ بين لظى الشماتة وجحيم الرأفة!

الجميع بَكاها، وتغنّى بخوالي أيامها!

الشعب العراقي ينزف، وينزف، والسنون العجاف قد تخطّتْ حاجزَ السبع، وما لاح في الأفقِ بوادرُ غيثٍ ولا مطر، فما تبدّل شيء مما كان، ارتحل أُناسٌ.. وحطّ الركبُ بآخرين.. ولم ينتصب سوى هامة الكراسي المقدسة!

في ظل الحصار والحرب، تزدهر الأسواق الشعبية في بغداد، يبيع الأهالي كل شي، ويأخذون عوضاً عنها أي شيء!

فلقمة العيش باتت أشح من ذي قبل، الوقود قليل الوجود، وسعره لا تصله أنامل الضعفاء، وإن استطالتْ قليلاً.. فستتكبد ويلات الانتظار الطويل!

ثلاثة أشخاص، كانوا يستقلّون سيارتهم، متجهين صوب السوق الشعبية الرئيسة في بغداد، أعينهم لا تفتأ تتفحص كل الأشياء،

باتوا يشكّون في كل نسمة.. يجب أن تبقى أعينهم مفتوحة تأهباً لأية مفاجآت!

يفصلهم عن السوق الشعبية حيّ سكنيّ، يجب أن يلتفُّوا من خلفه حتى يصلوا إلى السوق، مروا بجوار مبنى من أربعة طوابق، دمرته الحرب تماماً، لم تُبق إلا هيكله الخارجي، الله وحده يعلم متى سيُعاد بناؤه، أو على الأقل متى سيُزال من ناصية الطريق!

توقفتْ السيارة عند مدخل السوق، قال السائق لرفيقه وهما يستعدّان للنزول: «**رافقتكما عناية الله يا خلّي..**»، وعلى الفور وضع الشخص المجاور له يده على فمه في أسلوب تمثيلي، وقال ممازحاً: «**أرجو ألا تنسى.. فـ «العميل ٤» و «العميل ٥» هي أسماؤنا المعتمدة، يجب أن تُعوِّد لسانك على ذلك**»

«**كما تريد.. أيها العميل ٤**»، رد ضاحكاً.

أمسَكَ «العميل ٤» بيد «العميل ٥» وقاده إلى مدخل السوق، المهمة تبدو مملة نسبياً.. فعليهم أن يتبضعوا لمدة نصف ساعة، ثم يتوجهوا إلى المحطة التالية!

لا تزال السوق تتزاحم بالناس على غير العادة، ربما بسبب إشاعاتٍ تفيد بعزم الحكومة على تنفيذ «حظر تجوال» في بعض الأحياء المضطربة!

تأكد السائق أنهما قد اندسّا بين الناس، وألّا شبهةَ تحوم حولهما، أدار عجلة السيارة نحو الجهة المقابلة، عليه أن يُجري مسحاً للمنطقة.. ليتأكد من خلوّها من أي عقبات.

تنقل العميلان بين المتاجر، كأنهما يبحثان عن محلٍ ليتبضّعا منه، نظر «العميل ٤» إلى متجرٍ لبيع الساعات، ثم إلى فرّان، ثم..

خطف نظرة سريعة إلى «كشكٍ» صغير لبيع «السُّبَح».. وابتسم!

كانت السُّبح معروضة بطريقةٍ مبعثرة، لا تتخذ أسلوباً معيناً في التنسيق، يراها الناس بترتيب عشوائي، إلا أنها لم تكن كذلك في عين «العميل ٤»، رأى السبحة الخضراء الكبيرة معلقة بشكل بارز، وتتدلى تحتها أربع سبحات أصغر حجماً، كانت «الشيفرة» تُشير إلى أن السوق الشعبية لا يوجد بها أي حركة غير عادية، بالإضافة إلى أن الجهات الأربع قد مُسحت بشكل دقيق!

«**هيَّا بنا**»، قال ذلك «العميل ٤» عندما قرأ الشيفرة، أمسَك بيد «العميل ٥» معلناً الانطلاق نحو الوجهة التالية، كان يحمل بعض المتاع الذي اشتراه قسراً، لم يرَ أية أعين تلاحقه، كل شيء على ما يرام، لا بد أن يقطعا عرض السوق ليصلا إلى الحي السكني الذي يليه، تَوَجّها في تصميم، كان الحيّ خالياً من المارة.. إلا من بعض الأطفال الذين كانوا يمرحون ببراءة، ولم يعبأوا بأثقال الحياة!

يمتاز «العميل ٤» برباطة جأشه، وحسن تدبيره في الظروف الصعبة، ولذلك أوكلت إليه مهمة اصطحاب «العميل ٥»، وحمايته، وبالإضافة إلى ذلك.. فتربطه بـ«العميل ٥» رابطة قرابة، فهو خاله الذي تربى معه سنين طويلة.

..، وبعد خطة تضليلية معقّدة.. وصلا إلى أسوار المبنى المقصود، كانت رائحة المكان عفنة، ورائحة جثث الحيوانات تزكم الأنوف، طغى الظلام على نور النهار، فمحاه من صورة الوجود، التفّا حول السور الخارجي إلى أن وصلا إلى فتحة جانبية في آخره، دخلا إلى حرمه، كان «العميل ٤» يراقب المكان بحذر، بينما يتولى «العميل ٥» إنارة الطريق.

أخرج «العميل ٤» سلاحه بسرعة عندما سمع صوتاً يتحرك بالقرب منه، أمسك بيد «العميل ٥» وأمره بالاختباء خلفه، توقفا لحظة.. ترقباً للمجهول الذي يسمعان صوته ولا يريانه!

«**هل من المعقول أنّ أمرنا قد انكشف؟! لقد اتبعنا أسلوباً متقناً في التخفي! هل خاننا أحد؟!**»، أسئلة باتت تُلحّ عليهما، وتبحث في عمق الظلام عن مجيب!

ضحك «العميل ٤» على حالهما، وقال: «**مجرد جُرذ.. الحمد لله، أنا أكره الجرذان!**»

«**أمّا أنا فلديّ عقدة منها.. ولن أعتاد عليها أبداً**»، أجاب «العميل ٥»، وكان الهلع بادياً عليه.

وصلا إلى المبنى الداخلي، يظهر عليه آثار الدمار، لم يعد صالحاً للاستخدام، فقد استهدفت الصواريخ الأمريكية معظم أجزائه تقريباً، إلا أن هيكله العام بقي صامداً!

أشار «العميل ٤» لرفيقه بالتوقف للحظات.. إلى حين قيامه بمسح سريع لحرم المبنى.. مبالغة في احتياطه الأمني، لم يستغرق منه ذلك سوى بضع دقائق، بادرا بعدها بالدخول إلى المبنى الذي كان قذراً جداً، ورائحة الجرذان تعم أرجاءه، اقتربا من بعضهما البعض.. ليكونا في محيط إضاءة المصباح الذي يتولى «العميل ٥» توجيهه، كانت التعليمات تشدّد بعدم الدخول في حديث جانبي، والاقتصار على الجُمل القصيرة والضرورية فقط.

توجّها إلى بابٍ يعرفانه تماماً، كانت اللوحة التي فوقه تشير إلى أنه «المستودع رقم ٣»، مكانه غير لافت للانتباه، فهو بجوار دورة المياه، ومكشوف للجميع!

دخلاه وأغلقا الباب خلفهما، كان المستودع يحتوي على قطع غيار تالفة، وبعض الصناديق المغلقة، ومجموعة كبيرة من الأوراق المتناثرة على الأرض.

وجّه «العميل ٤» مصباح الإضاءة نحو الحيطان، ليتأكد من مكان الباب المطلوب، تأكد أنه هو، توجّها إليه بلهفة، كانت اللوحة التي فوقه تشير على أنه مخرج للطوارئ، ولم يكن كذلك!

«**بسم الله**»، قالها «العميل ٤» وهو يحاول إدخال المفتاح في قفل الباب..

فُتح الباب وله صرير مزعجٍ، كان يؤدي إلى دَرج سفلي، نزلا إلى الطابق السفلي، كان فارغاً من كل شيء.. إلا من رائحة الرطوبة العفنة، يبدو أنها سنوات طوال لم يخضع للتنظيف، حتى منذ أيام النظام السابق، فلم يكن له أي استخدام، بل بقي مهجوراً.

«**الحمد لله على السلامة**»، قالها «العميل ٤» لرفيقه.

تحركَا بلهفة عبر الممر الطويل الذي يؤدي إلى باب في آخره، طرق «العميل ٤» الباب بهدوء، وقلبه يخفق، وهو كذلك في كل مرة يأتي فيها لهذا المكان، وقال: «**السلام عليكم**».

ابتسم..

..، وهو يرى أمامه «**العميل ١**» والبقية.

٥

توجه **النقيب مرتضى فاضل** نحو مكتب **العميد وليام فرانك** لتسليمه تقريراً عن العملية التي استهدفت نقطة التفتيش.

لم يكن يحب ملاقاته، ولا حتى رؤية خياله، فقد أَدخل الخوف في قلبه، وأذاقه كوابيس الرعب والفزع، وفي الوقت نفسه.. لم يكن يستطيع التخلي عنه! ولا الانفكاك عن جانبه، فقد كان يعتقد أنه يمتلك كل نواصي رزقه، وما عاد يبصر النور إلا تحت شريعته.. حتى وإن كانت جائرة!

كان النقيب مرتضى يلعن اليوم الذي أتى فيه إلى هذه القاعدة البائسة، ويلعن المقاومة التي أحرجته كثيراً أمام القيادة.. وكان يلعن نفسه أيضاً!

مر بجوار نادٍ مخصص للضباط الأمريكان، كان خالياً إلا من بعض عمال النظافة، يتذكر بنشوة تلك الليالي الحمراء التي كان يعج بها هذا النادي، خصوصاً في أعياد الكريسماس ورأس السنة!

تقع هذه القاعدة الأمريكية شمال بغداد، ويفصلها عن حي الحارثية مساحة صحراوية شاسعة، اختير هذا المكان المكشوف لسهولة تغطيته أمنياً، ولرصد أي متسلل أو مهاجم.

التحق النقيب مرتضى بهذه القاعدة منذ سنتين وخمسة أشهر، أُوكلت إليه مهمة التعامل مع بعض الأحياء الشمالية لبغداد.. من بينها حي الحارثية.

قاده السكرتير إلى مكتب الضابط وليام، كان يظهر على الباب لافتة كُتب عليها «مكتب مساعد قائد القاعدة: العميد وليام فرانك».

طَرق الباب بخضوع حتى أُذن له، انتصب أمام العميد وليام في وقفةٍ عسكريةٍ بلهاء، وحيّاه بالتحية المعتادة، كان العميد وليام مستغرقاً في الحديث مع **مترجمته العراقية.. يارا،** كانت في أبهى زينتها، تُسمع ضحكاتها من الخارج، بالإضافة إلى عملها كمترجمة خاصة له.. إلا أنه يوكَل إليها بعض المهمات الخاصة، وكان من آخرها.. قيامها بمسح ميداني لمنازل بعض المشتبه بهم.. تحت غطاءٍ تنكري يحمل طابع التسويق لمنتجات تجميلية!

لم يجد العميد وليام صعوبة كبيرة في مد جسور التواصل معها، كانت مندفعة بالفعل، وستلبّي حاجاته (الخاصة) إن طلب منها ذلك!

كان العميد وليام يحب التسلط والظهور، ولو كان على حساب الآخرين، يعرفه الكثيرون بطبيعته المزاجية المتقلبة، يهابونه كثيراً، ويخشون المثول بين يديه!

التفتَ العميد وليام إليه، كانت قسماته صارمة، وتعبيرات وجهه سلبية.. من تلك القسمات التي لا يُعلم ماذا يُخبأ خلفها!

«سيدي العميد.. هذا التقرير الخاص باستهداف نقطة التفتيش.. كما طلبت»

مدّ يده بالتقرير، وهو يتضرع بأن ينال استحسانه هذه المرة، فقد أمضى الليل كله في إعداده، تناوله العميد، وشرع في قراءته قراءةً فاحصة.

لم يكن مكتب العميد من الطراز الفخم والمتكلف، بل كان أنيقاً وعملياً، تزهو في منتصفه طاولة اجتماعات مستطيلة الشكل، ويمكن

القول بأن العلامة الفارقة التي تميز مكتب العميد.. هي رائحة سجائره المركزة، التي تخنق الأنفاس!

تبدلتْ ملامح العميد وليام بسرعة؛ احمرّ وجهه، واتسعت عيناه، كأنما جهنّم تستعر، ضرب على الطاولة بقبضته، وصرخ في وجهه قائلاً: «**ماذا تعني بهذا التقرير؟ ماذا سيُقال عني أيها الأبله؟**»، أتلفَ التقرير بكلتا يديه، وقذفه في وجهه: «**هذا غير معقول! نحن لا نُقيِّد أي عملية ضد مجهول.. أفهمتَ ذلك أيها الغبي؟! أُغرب عن وجهي!!**»

كان لعابه يتطاير من شدة غضبه، ويتلفظ بعبارات نابية في حق النقيب العراقي.. الذي أورد في تقريره أن سيارة مدنية يستقلها شخصان.. قاما بتزويد بعض الجنود بطبق طعام، ثم توالتْ الصواريخ بعد مغادرتهما بدقائق، وذكر أنه أرسل قوة لمحاولة تتبعهما، إلا أنهم لم يقفوا على شيء من آثارهما، ختمه بذكر العدد الفعلي للقتلى والجرحى!

صرخ العميد منادياً: «**تعال أيها الغبي.. إلى أين ستذهب؟! تقريرك ناقص، ولا يفيدنا بأي شيء، طلبتُ منك تقريراً موسعاً عن مصدر إطلاق الصواريخ.. هذا الذي يهمنا، وليس عن تتبع شخصين قاما بالهرب!**»

التفتَ إلى الفتاة العراقية التي بجواره، وقال: «**يارا.. أراكِ لاحقاً**»، حيته بيديها، وودعته بابتسامة.

أردف العميد وليام، ونظراته تكاد تصرع النقيب العراقي: «**أيها الأحمق.. لقد أفاد تقرير (وحدة المراقبة) أن الصواريخ قد تم إطلاقها من على بعد عشرة كيلومترات، وأنت تتحدث عن طبق طعام!**»، أشار بأصابعه مهدداً: «**ثلاثة أيام أمامك.. ثلاثة أيام فقط، أريد الرأس**

المدبر ولو كان الثمن هلاك كل الأهالي! ابحث في كل الأحياء المجاورة، شدد المراقبة عليهم، اعتقل من شئت، أريد حلاً سريعاً!»

«كما تريد سيدي»

«بعض الأحياء لا يَرِدني منها أي تقرير، ولا تتم فيها اعتقالات.. حي الحارثية، والخميس.. أين تقاريرك عنهما؟!»

«إنهما حيّان هادئان جداً يا سيدي.. ولا نواجه فيهما أية متاعب!»

ضرب العميد بقبضته على الطاولة، صارخاً بأعلى صوته: «**أيها الأحمق.. مَن علّمك مبادئ العسكرية؟ اسمع أيها الغبي.. لا تثق في أحد أبداً.. ابحث في كل مكان، وداهم كل بيت، لن أسمح بأية أخطاء جديدة، أريد تقريراً عن هذين الحيّين بسرعة!! هل فهمت؟!»**

«كما تريد سيدي»

خرج من عنده صاغراً ذليلاً، يحمل بين جنبيه حملاً ثقيلاً، عليه أن يقبض على الجناة، وإلا أصبح هو الضحية القادمة!

«**يبدو أن لقاءك بالعميد وليام كان ممتعاً**»، التفتَ النقيب مرتضى للصوت الشامت الذي خلفه.. كان **الملازم حامد**، نظرا لبعضٍ نظرةَ عداءٍ.. ثم افترقا!

٦

رحب بهما «**العميل ١**»، وشكرهما على قدومهما في الموعد المحدد، سنو عمره العجاف لم تمنعه من التبسط معهما، والسؤال عن أحوالهما الشخصية، بضعة وستون عاماً.. جرّب فيها كل شيء، وعاقر فيها كل شيء.. الحرب والسلم والحصار، ذاق مرارة الهزيمة، وانتشى ببريق النصر المزعوم!

لحيته البيضاء.. تُضفي عليه مهابة عظيمة، الكل هنا يحبه ويحترمه.. ولا يعدلون عن رأيه، لم يكن يتحدث كثيراً، ولا يجادل أحداً، ولكنه إذا شرع في حديثه.. فإن الجميع يُصغي إلى كل مايقول باهتمام بالغ، فقد أسرهم بأخلاقه قبل منزلته العلمية: «**هيا فلنبدأ العمل يا أبنائي**»، قالها لجميع العملاء، طبيعته جادة وعملية، هو الذي يدير هذا المكان مع رفيق دربه «العميل ٢».

توجّه العميلان إلى المكان المخصص للعمل، لا بد أن ينجز «العميل ٥» مهمته قبل المساء، فقد أتموا بنجاح مرحلة التصميم والبرمجة، كان ذلك جزءاً صعباً وحساساً، إلا أن عقول العراقيين الجبارة قد ذللت بفضل الله كل عسير.. وهم الآن في الخطوة الأخيرة التي تتضمن مرحلتي الرسم والتصنيع.

تم تهريب عدد من الأجهزة إلى هذا المكان بعد «سقوط بغداد» في يد الأمريكان، وخصوصاً أثناء الانفلات الأمني الذي حدث بعد ذلك، قام عدد من العلماء العراقيين بتأسيس **مركز سرّي**

للأبحاث التقنية، ليكون داعماً للمقاومة في وجه الغريب المحتل، اختير هذا المكان ليكون مقراً له، وتم ترشيح «العميل ١» ليترأس إدارته.

تم اختيار عدد من العلماء بعناية، وكذلك دَمْج بعض الأوجه الشابة معهم من خريجي التخصصات العلمية.. ليشكّلوا صفاً رديفاً له.

«**بسم الله.. توكّلنا على الله**»، قال «العميل ٥»، ثم ارتدى قفازين استعداداً للشروع في مهمته التي نذر نفسه لها.

تناول «العميل ٥» فيلماً شفافاً ثم ثبته تحت جهاز خاص بالرسم الدقيق، يوجد في مقدمته كاميرا رقمية تُستخدم لطباعة الدوائر الإلكترونية على أسطحٍ ملساء.

كان حريصاً على الدقة في مهمته، فهي تتطلب قدراً كبيراً من ذلك، تأكد مرة أخرى من صحة موضع الفيلم الشفاف.

«**بسم الله**»، وضغط زراً في جانب الجهاز معلناً بداية الطباعة.

كان يظهر من ملامح «العميل ٥» التركيز الشديد، والتفاني في سبيل إنجاز مهمته التي خاطر من أجل إتمامها، تناول الفيلم الشفاف ووضعه على لوح معدني مغطى بالنحاس بنفس حجمه تقريباً، قام بتعريضه للأشعة فوق البنفسجية ليتم طباعة الدائرة الإلكترونية من الفيلم الشفاف على اللوح المعدني.

«**جهد جبّار.. ليتني أفهم في التقنية مثلكم!**»، قالها «العميل ٤».

نظر إليه «العميل ٥» نظرة وُدّ، كان يعجبه فضوله الكبير، ورغبته الأكيدة في التعلم، قال ممازحاً: «**أنت مجرد خريج تسويق.. أخبرني ما هي فائدة التسويق في زمن الحرب؟!**».

تناول «العميل ٥» اللوح المعدني وقام بوضعه في حوضٍ مملوء بمادة كيميائية، وذلك لإزالة النحاس منه، بحيث يبقى المكان الذي طُبعت عليه الدائرة من دون إزالة.

هذه الخطوة تستغرق وقتاً طويلاً، لذا فقد استغل «العميل ٥» ذلك في قراءة مقالة تتحدث عن قيام أحد المهندسين الغربيين بتحويل البلاي ستيشن الثاني إلى «سوبر كمبيوتر» باستخدام برنامج التشغيل (LinuxPS2)، بحيث يمكنه أن يجعل منه منصة حقيقية لتوجيه الصواريخ و إطلاقها!

تعجّب من هذه الحُمّى المستعرة، وازداد يقيناً بأن سلاح التكنولوجيا بات يشكل عاملاً حاسماً في الحروب المعاصرة.

قام «العميل ٥» بأخذ جهاز حفرٍ إلكتروني دقيق، كان رأسه رفيعاً جداً، تم توصيله بجهاز حاسب آلي، وبدأ عمليةَ الحفر بتركيز كبير، بعد ذلك وصَلَ إلى الخطوة الأخيرة.. وقام بتركيب القطع الإلكترونية على اللوح المعدني.

..، وأصبح كل شيء جاهزاً الآن!

٧

الصغار كلهم. . كانوا يحبون اللهو في مدائن العراق، يمرحون في رباها، بين جَنبات أزقّتها، لا يكدر صفو براءتهم أحد، ولا يبدد هدوء يومهم أحد. . حتى وطئ الغريب أراضيهم. . فأحال الأشياء يباساً!

رتل أمريكي عراقي متكامل، يقترب من الشارع الرئيسي لهذا الحي، يزحف بكبرياءٍ فاحشة، ويقتنص هدأة الصبح ليغرز فيها مخالبه!

يتقدم الجميع كاسحة ألغام من نوع «بافالو» التي صُنعت من الفولاذ الصلب، وتحتوي على كاميرا رقمية موصلة بشاشة داخل العربة. . لتؤمن تغطية أمنية من أي استهداف تفجيري، كانت تمثل الثورة الأمريكية في عالم التسليح. .

إلا أنها أصبحت صيداً سهلاً لعمليات المقاومة!

يليها موكبٌ يحتقر كل من يلاقيه، يتكون من أربع دبابات من فئة «أبرامز»، ومدرعتين من فئة «برادلي»، وثلاث عربات «همر» لنقل الجنود، وعدد من دوريات الأمن التي تؤمِّن الجهة الخلفية، بالإضافة إلى التغطية الجوية التي تتكفل بها طائرتا هيلوكوبتر من نوع «بلاك هوك».

«**نحن الآن على مدخل الحيّ، وكل الأمور على ما يرام**»، قالها النقيب مرتضى لمركز العمليات بالقاعدة، أعاد تثبيت جهاز

اللاسلكي في حزامه، كان مُصمِّماً على أن يثأر لكرامته التي أريقت في مكتب الضابط الأمريكي.

اقترب الرتل العسكري من (الجامع الكبير)، نظر إليه النقيب مرتضى نظرةً فاحصة، يقع على الطريق الرئيسي للحي، ويربط بين أجزائه المتفرقة.

كان ينظر إلى قائمةٍ بأسماء بعض المشتبه بهم: « **هل تريد أن تُسيِّر رتلاً ضخماً من أجل اعتقال شخصين فقط؟ !**»، تذكر كلمات العميد وليام، أقنعه بتنفيذ حملة عشوائية.. لاعتقال بعض الشباب ممن يمكن أن يَنضمّ (في يوم من الأيام) إلى صفوف المقاومة!

توقفوا بجوار مدخل أحد المنازل.. وحطّوا معهم رحال اللؤم والنذالة! انتشر الجنود العراقيون والأمريكان حول المنزل، القناصة على أهبة الاستعداد، والمصفحتان جاهزتان لحالة الطوارئ.

اقترب النقيب مرتضى من باب المنزل ليكون على رأس فرقة المداهمة..

ضُرب الباب بعنف، كان الجنود يستخدمون أقدامهم في ركل الباب، ويهددون بكسره إن لم يُفتح!

كان أهل المنزل نياماً، فزعتْ **هدى** عندما اخترق الطرق الموحش أذنيها، اهتز قلبها، خشيت على نفسها وعلى أبنائها، زوجها غير موجود، ولا أحد يمكن أن يحميها من هذا الطارق المجهول، توجهت نحو الباب، كان الطرق يزداد عنفاً، والصراخ من خلفه يكيل بوابل من التهديد والشتائم، الخوف والرهبة يغشيان بيتها الهادئ.. الذي طالما ظُلل بالحب، وعُمِّر بالصلاح!

فكرتْ بألا تفتح لهم، فهي لا تعلم مَن يكون هؤلاء؟! ولا لأي شيء

حضروا في مثل هذا الوقت الباكر! أطلتْ من النافذة، كادت أن تفقد اتزانها. . حشودٌ أمنية كثيفة تحيط بمنزلها، الجنود ينتشرون بكثافة، فوهات الأسلحة تحدّق فيها. . شاهرةً سموم حقدها!

«ماذا.. ماذا تريدون؟»، قالت بفزع.

«افتحي الباب وإلا كسرناه!!»

فتحت الباب. . بعد أن لفّتْ جسدها بعباءة سوداء، لم يكن يظهر من جسمها شيء قَطّ. . وما كان للعفاف أن يُنسى حتى في أحلك الأوقات!

اندفع ثلاثة جنود للداخل، يزرعون الذعر، ويحصدون كراهية الجميع، أحدهم صوّب سلاحه نحوها: **«أين زوجك؟ أخبرينا بسرعة.. أين زوجك؟»**، قالها صارخاً.

سقطتْ في مكانها من الفزع، كانت تتلعثم في حديثها، هول المفاجأة عقد لسانها: **«لا.. لا أدري.. غادر المنزل منذ أربعة أيام، ولم يَعدُ»**.

ضربها بعقب رشاشه: **«قلت أين هو، لا أريد مراوغات يابنت الـ (..)، أخبرينا.. وإلا قتلنا كل من في المنزل!»**، وأشار إليها بسلاحه.

«أقسم بالله.. أنا لا أدري!»، قالت ذلك وهي تبكي!

قاموا بتفتيش البيت تفتيشاً دقيقاً، بعثروا كل شيء، أزاحوا الأمتعة من أماكنها، كانوا يقذفون بها بعيداً، ويُمعنون في الإهانة. . كجزء من الحرب النفسية التي هي أحد أهداف هذه المداهمة!

فزع أبناؤها من نومهم، تجمّعوا مع أمهم في غرفة واحدة، **نسرين**. . أصغرهم؛ كانت تبكي في حضن والدتها، وتتشبث بملابسها خشية أن يأخذوها!

أقبل النقيب مرتضى إليهم، كان يتلاعب بمسدسه، ويوجهه نحو الطفلة الصغيرة بشكل استفزازي، كان يبتسم بسخرية، أسنانه الصفراء المتسخة.. تزيد من قبح أخلاقه قبحاً آخر: «**يبدو أننا سنضطر لدخول لعبة ظريفة معها، فهي لا تريد أن تتعاون معنا.. هيا فلنبدأ الآن!**

دخل عليهم جندي أمريكي، كانت ينظر إلى جسد **هدى** نظرات ذات مغزى: «**نساؤكم جميلات.. يا مرتضى!**»، وأطلق ضحكة مدوِّية، شاركه النقيب مرتضى ضحكه وقال: «**بالفعل.. هن كذلك، ويمكنك التجربة!**»

أَتَمّوا عملية التفتيش، لم يجدوا شيئاً، لكنهم أبوا أن يغادروا من دون ضحية، اقتادوا ابنها **محمد**، عمره ثمانية عشر عاماً.. يستطيع حمل السلاح، ووالده مشتبه به.. يكفي ذلك ليكون إدانة دامغة في حقه!

قاموا بمداهمة عدد من المنازل في الحي، أطاروا البراءة من أكنانها، وبددوا الأنس من كل شفة، كان اعتقالهم تعسفياً، فقد كانوا يعتقلون كل من يتجاوز عمره السابعة عشرة، يقومون بتقييده أمام أهله، ويركلونه بأرجلهم إن أبدى أيّةَ مقاومة، ثم يقودونه معصوب العينين.. مصحوباً بنداءات الاستعطاف والترحم..

التي لا تنتهي أبداً!

٨

كان «**الملازم حامد**» يتجول كعادته بجوار السجن النسائي في القاعدة الأمريكية الذي تم إنشاؤه قبل تسعة أشهر، وذلك بعد أن كثرت أعداد المعتقلات العراقيات!

يسمع صرخاتهن واستغاثاتهن.. فينتابه همّ أليم.. فهو لا يستطيع تقديم أي خدمة للحرائر اللاتي وقَعنَ في أسر المحتل، بعض الليالي لم يغمض له جفن من شدة حسرته.

كان يسمع عن حوادث اغتصاب من قبل الجنود الأمريكان في بعض السجون الأخرى، لكنه لم يرَ شيئاً من ذلك في هذه القاعدة.. كُنّ يتعرضن للتعذيب والمضايقات.. لكن لم يرَ اغتصاباً بمعناه الحقيقي.

كان يتمنى أن يُؤذن له بتنفيذ عملية داخل القاعدة.. انتقاماً لشرفهن، وشفاءً لصدره، فلْتذهب روحه فداءً لما يؤمن به، ولْتتعالَ عن قذارة الطين! كان يُلحّ على القيادة أن يُؤذن له بذلك، إلا أن التعليمات كانت واضحة، فهو يمثل ورقة رابحة، إضافة إلى صعوبة زرع عميلٍ آخر.. في حال فقدانه.

انتقل إلى الجهة المقابلة.. التي تحوي سجن الرجال، كان منظره كئيباً وموحشاً، أُحيط بتشديدات أمنية مكثفة، كاميرات المراقبة تنتشر في كل مكان، السياج الحديدي يحيط بأسواره، صُفّت

الزنزانات بطريقة طُولية، يفصل بين كل زنزانتين جدار إسمنتي، يعاني المعتقلون تقلبات الأجواء القاسية.. إذ إنها صُمّمت بشكل أقفاصٍ مفتوحة، لا تصدّ قيظاً ولا زمهريراً، كتلك التي في غوانتانامو.. سيئة الذكر!

اقتربَ من إحدى الزنزانات.. البارحة اقتيد إليها معتقل جديد، كان من حي الحارثية!

«**اعترفْ أيها الكلب.. أين يختبئ والدك؟!**»، قالها النقيب مرتضى للشاب محمد، كان يركله بكلتا قدميه: «**يظن والدك أنه أذكى منا؟!**»، يضحك بتكلف: «**لقد أمهلناه طويلاً، وإن لم يُسلِّم نفسه فستكون حتماً خير بديل!!**»، وأشار إلى سلاحه مهدداً!

ثبّته النقيب مرتضى من الخلف، ومن ثم تقدم إليه أحد الجنود العراقيين وضربه على وجهه: «**قلت لك لا تتحرك، أنت لا تتعاون معنا!!**»، كان يحمل بيده قطعة إسفنجية، أدخلها في فمه بقوه وهو يضحك، ركله بقدمه مرة أخرى، وقام بإدخال كمية كبيرة من الماء الساخن في فمه، وأغلق أنفه!

احمرّ وجهُ محمد وهو يحاول أن يكتم صرخةً بداخله، وبدأ يختنق.. جسده يبحث عن ذرة أوكسجين تائهة، اختلط الماء بالهواء، لم يعد يحس بحرارة الماء.. كان يريد أن يتنفس.. أن يُخفف الاحتقان الذي اعتراه.. أن يعود للحياة!

شَدّ النقيب مرتضى يديه.. ليقاوم ردةَ فعله الدافعة، ويُذيقه كأس الألم على أصوله!

لم يدم ذلك طويلاً، فقد بدأ جسم محمد ينتفض، وبدأت قواه تخور تدريجياً.. حتى هبط جسده الهزيل، وسكن حراكه تماماً.

لم يتحمل الملازم حامد رؤية هذا المنظر، سارع بالابتعاد عن المكان، كان يسمع ضحكات النقيب مرتضى، وتأكيداته لرفيقه بأنه سيفيق بعد عدة ساعات ليقوم بالاعتراف مباشرة!

انتقل الملازم حامد إلى غرفة النعوش.. بعد أن تأكد من خلو المكان من أي أحد، أُعدّتْ هذه الغرفة خصيصاً لاحتواء جثمان القتلى.. قبل نقلها من القاعدة، كان دخولها حكراً على الأمريكان وبعض الضباط العراقيين.

كانت الرائحة التي تنبعث من الغرفة نتنةً للغاية، بعض الجثث بدأت في التحلل، كان الملازم حامد يعرف فريسته تماماً، فقد نسخ صورته في مخيلته بشكل دقيق، فتح غطاء التابوت الثاني.. لم يتم تغطيته بالعلم الأمريكي بعد.

أرادَ أن يتخفف قليلاً، وضع رشاشه على الطاولة، أراد أن يتم كل شيء بدقة متناهية، قام بنزع الرداء الموضوع على الجثة، ثم أدخل يده في أحد الجراح.. بالقرب من صدره، كانت صورتَه تتراءى له دوماً، تأكد من «وجودها» بداخل الجرح! تمتم بحمد الله.

أعاد كل شيء إلى مكانه، وبادر بحمل سلاحه، ثم خرج من دون أن يثير أي انتباه!

..، إلا أنه لم ينتبه أبداً إلى ذلك «الشخص» الذي كان يتتبع تحركاته من بعيد!

بدأتْ مراسم تشييع جثمان الجنود الذين قتلوا في نقطة التفتيش، حيث ستوضع في توابيت معدنية يتم تغطيتها بالعلم الأمريكي، ومن ثم يتم حملها إلى طائرة شحن خاصة عبر ممر مفروش ببساط مخملي، تمهيداً لنقلها إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

خرج **العقيد جورج ديفيد** من مكتبه.. ليشرف على عملية التشييع بنفسه، كان يراقب سيارات الإسعاف وهي تقترب من غرفة النعوش، ويتابع نزول الفريق الطبي لحمل التوابيت إلى الطائرة.

يُعتبر العقيد جورج أحد القادة الميدانيين المتميزين، تقلد عدداً من أوسمة الشكر خلال مشواره القتالي الطويل، يشرف الآن على جميع القوات الأمنية في القاعدة، ويعتبر أحد مساعدي قائد القاعدة.

كان يحرص على تدوين العدد الفعلي لجنوده الذين يُقتلون في المواجهات مع العراقيين، ليقارن ذلك بالعدد المعلن في تصريحات القادة السياسيين!

اشتهر بمعارضته لبعض التصرفات التي ينتهجها الجيش الأمريكي ضد المعتقلين، قام برفع تقرير للقيادة بأن ذلك مخالف لمبادئ أمريكا وأخلاقياتها المعلنة، وأنه لا بد أن تتم معاملتهم كأسرى حرب، ألحقه بدراسة ميدانية تُظهر المعاملة الوحشية التي يتعرض لها المعتقلون العراقيون!

بعد ذلك بأسبوع واحد.. ورَده خطابُ إنذارٍ من «البيت الأبيض» يطلب منه عدم خرق سياسات الحرب ضد الإرهاب!

كان يسترجع دوماً حواراته الساخنة مع زوجته **كاثرين**، كانت مراسلةً لإحدى الصحف الأمريكية، عارضته كثيراً على قبول فكرة الذهاب إلى العراق، كانت تُؤمن بحق الشعوب في تقرير مصيرها، ناقشها كثيراً، حاول إقناعها بأنه جاء من أجل مهمة سلامٍ وتحرير.. كان مقتنعاً ببعض ما يقوله فقط! إلا أن تصرفاتٍ جيش بلاده في العراق.. قد عرّت كل شكٍّ لديه!

اقتربت سيارات الإسعاف من طائرة الشحن التي ستقل جثث القتلى، كانت تربض بكبرياء على أرض المطار العسكري، العقيد جورج

يتابع بأسى جنوده الذين يُرحّلون دورياً إلى ديارهم من دون أرواح، ويفكر.. هل حقاً ماتوا من أجل قضيةٍ عادلة؟!

توقفتْ السيارات الأربع على مقربة من الطائرة، نزل الفريق الطبي لحمل التوابيت، كانت رؤوسهم منكسة، الحزن أخذ منهم مأخذه.

وصلت الجثة الأولى للطائرة، تبعتها الثانية.. ثم الثالثة، كانوا يحملونها على أكتافهم في مشية عسكرية مُحكمة.

..، سمع الجميع صوته بشكل واضح، لقد كان يشق الفضاء بسرعة كبيرة، ويخترق المسافات غير آبه بأي أحد، تمنوا ألا يحدث ذلك مرة أخرى، صاروخٌ يوشك أن يقع!

وفي محيط القاعدة أيضاً!

ارتبك العقيد جورج، لم يَعلم أحدٌ ماذا يحدث، ولا أين سيقع الصاروخ بالضبط، الكل يتوقع أن الموت أقرب إليه من غيره.

كان العقيد جورج يتابع الموقف من بعيد، سقط الصاروخ بشكل مباشر على الطائرة، أصاب جزءها الأوسط بالضبط.. حيث ترقد التوابيت!

أَطلقتْ صفارات الإنذار صيحاتها، فزعت القاعدة بأكملها، أُعلنتْ حالة الاستنفار القصوى، هبّ الجميع إلى أسلحتهم انتظاراً للتعليمات..

لحظات..

ثم سقط صاروخان آخران..

وفي المكان نفسه أيضاً..

..، وبدأت الطائرة تشتعل!

٩

فقد العميد وليام كلَّ بقايا تجلُّده وحِلمه، كان الشر يُرى في قسمات وجهه، والشرر يتطاير من عينيه، لا يستطيع أحد الوقوف أمامه، ابتعدوا جميعاً عن مكتبه.. خشيةَ أن يطأهم غضبه، وحده.. سكرتيره الخاص.. يذوق الويلات!

شرع في قراءة التقرير الصادر عن مركز العمليات، يداه تنتفضان غضباً، كان التقرير يؤكد استخدام العدوّ تقنية متطورة في آخر عمليتين.. شبيهة بعمل الصواريخ الموجهة بالشرائح الذكية التي يستخدمها الجيش الأمريكي كثيراً، ومما يرجح ذلك.. أن الأهداف كانت محددة، وأنها كانت تُستهدف بدقة متناهية، إضافةً إلى أن أقرب نقطة يمكن أن يتم الإطلاق منها تبعد مسافة ٨ كلم.. خارج أسوار القاعدة.. ويستحيل إصابة الهدف بشكل دقيق من دون توجيه إلكتروني!

أشار التقرير إلى أن منفِّذي العملية يُشتبه بانتمائهم إلى حي الحارثية.. استناداً إلى بعض المعلومات الاستخبارية التي وردت!

«**غير ممكن.. مستحيل**»، قال ذلك للعقيد جورج ديفيد الذي دخل للتو مكتبه.

قابله بسخرية: «**ربما يكون ذلك أمراً مستغرباً، ولكن علينا أن نتدارك الوضع !**».

أضاف العميد وليام: «**لا يمكن هؤلاء العرب المتخلفين أن يصلوا إلى مثل هذا المستوى، فهم أصغر شأناً من ذلك بكثير، كيف يمكن أن تتجاوز هذه الصواريخ تشويشاتنا الدفاعية من دون أن تتأثر بها؟!**»

«**بل إن ذلك قد حدث.. أنا رأيت الصواريخ الثلاثة تسقط على الطائرة بشكل دقيق ومتتابع، لا يمكن أن تقع ثلاثة صواريخ على هدف واحد بمحض الصدفة!**»

قام العميد وليام من كرسيه، وقال: «**مستحيل.. لا بد من تعاون جهات خارجية معهم.. روسيا مثلاً**»

رد عليه العقيد جورج: «**بغضّ النظر عن وجود دعم خارجي من عدمه.. إلا أنك تعلم رأيي جيداً، نحن الذين قمنا باحتلال بلادهم، وهم يقومون بردة الفعل المتوقعة.. لا غير**»

«**يبدو أنك أصبحت تتعاطف كثيراً مع الإرهابيين!**»، قالها بسخرية لاذعة!

«**سعادة العميد.. إن من يرى تصرفات جنودك ضد المعتقلين.. لا بد له أن يتعاطف معهم، فهم وإن كانوا مذنبين إلا أنه لا يبرر لنا التعامل معهم بهذه الطريقة، فهذا مخالف لأخلاقيات أمريكا مع أعدائها، وسيزيد بلا شك من حدة المقاومة، ونفور الأهالي منا!**»

أطلق العميد وليام ضحكة ساخرة: «**يبدو أن أكاذيب البيت الأبيض قد انطلت عليك أيضاً، سأطلب منهم أن يقدموا لك درساً خصوصياً في أبجديات الحرب المقدسة!**»

خرج العميد وليام من مكتبه متجهماً، تاركاً خلفه العقيد جورج، أصدر أوامره بتشديد المراقبة على الجنود العراقيين، وخصوصاً الستّة منهم، وكذلك طلب تقريراً موسعاً عن تقنية الشرائح الذكية،

وإمكان تصنيعها محلياً، والتخصصات الأكاديمية التي يمكن أن تقف خلف إنتاجها.

توجه إلى مسرح العملية ليقف على الحدث بنفسه، رأى بقايا الأدخنة تتصاعد من الطائرة المنكوبة، عانوا كثيراً من أجل إخماد النيران، فخزانات الوقود كانت ملأى عن آخرها، لقد تدمرت الطائرة تماماً، ولم تعد صالحة للاستخدام!

تناول جهازه اللاسلكي، وقام بنداء النقيب مرتضى، كان قلبه يتقطّر حقداً: «..، **أريد أن تُجري مسحاً دقيقاً لجميع الأحياء المجاورة للقاعدة، لا بد من معرفة من يقف وراء إطلاق الصواريخ، هل فهمت؟ !**»

«**حاضر سيدي**»

«**اقتل جميع الأشخاص الذين اعتقلتهم من حي الحارثية، أريد أن تقتلهم بطريقة بشعة، عذّبهم أولاً.. ثم ألقِهم في مكان عامٍ من الحي !**»

١٠

فزع أهالي حي الحارثية على نداء **مؤذِّنهم**، لم يكن أذاناً كما اعتادوا.. بل نداء استغاثة مخنوق، كان يهذي بحديثٍ غير مفهوم، طَرق الباب على عدد من وجهاء الحي، يطلب النجدة، يطلب الإسعاف.. بدأ الأهالي في التوافد عليه تدريجياً.

أراد أن يخبرهم بما رآه.. أن يصف لهم هول الفاجعة، لم يستطع، قادهم إلى الجامع الكبير، ليطلعهم على تفاصيل الجريمة المروعة.. ستة من شباب القرية، قُتلوا بطريقة بشعة، ومتشابهة! طلقةٌ في داخل تجويف العين اليسرى، وأخرى فوق السرة بقليل!

تم تشييع جثمانهم بسرعة، بعد أن نقلوا إلى المستشفى، كانوا قد فارقوا الحياة جميعاً، أجسادهم لا تزال دافئة.. مما يدل على أنهم قتلوا قبل إلقائهم بقليل!

لم يُسمح للأمهات برؤيتهم، مراعاةً لمشاعرهن، وحفاظاً على ذكراهم الحسنة.

وصل عدد من الصحافيين ومراسلي بعض القنوات الفضائية، نقلوا الخبر بتفاصيله، أُذيع في إحدى **القنوات «العربية» المشهورة**.. بأن مجموعةً من الإرهابيين المنتمين إلى المقاومة هم الذين قاموا بقتلهم!

توافد عدد كبير من الأهالي لتقديم العزاء لأم محمد، كانت في حال يُرثى لها، سمعتْ بطريقة قتله الوحشية، لم تتحمل الموقف..

انهارت سريعاً، كانت المصيبة أعظم مِنْ تصبُّرها، دعوات النسوة تتوالى على أمريكا وعلى أعوانها من الخونة.

اجتمع الرجال في منزل والد أميرة، كان من وجهاء الحي، كما إن أحد المقتولين من قرابته، الجموع تتوافد من الأحياء المجاورة لتقديم العزاء، كان أمير كل وفد يرتجل كلمة عزائية عند دخوله، بُهتَ الكثيرون عندما سمعوا عن الطريقة التي قتلوا بها، وكذلك التهديد الاستفزازي المصاحب لها.

«هكذا نتسلى بمن يؤذينا.. ٢٤ ساعة أمامكم لتسليم كلابكم المسعورة !».

انتشر نَصّ هذه الرسالة في الآفاق، وبات الناس يتساءلون عن شخصية المطلوبين؟ وعن جُرمهم الذي سبّب قتلهم بهذه الطريقة؟ فلا بد أن لهم قصة طويلة!

كان مجلس العزاء كبيراً، لم يتخلّف أحد من أهل الحي، تحدث والد أميرة بكلمات بليغة، شكر الجميع على الحضور، وعلى المشاعر الطيبة التي أبدوها.

توجهت الأعين نحو شاب ثلاثيني.. حينما بدأ في تقديم أحر تعازيه لأسر الضحايا، وصَفهم بالشهداء، وأنهم ماتوا في سبيل تحرير الوطن، وفي سبيل طرد المحتل، وأخيراً.. تعهّد بتقديم دعم مالي سخي لأسرهم.

كان منظره رثاً وغير مهندم، لم يكن يهتم بهيئته كثيراً، بعكس ما عرف عن وفرة أمواله!

كان كريم يرقبه باهتمام، يتابع طريقته المميزة في الحديث، أسلوبه الخطابي يلفت الانتباه، كان حديثه يتسم بالجرأة، والتصميم، قال

كلاماً إيجابياً في حق المقاومة.. لا يجرؤ الكثيرون على قوله في مثل هذه الظروف!

«**إنني لا أرتاح له أبداً!**»، كان أحمد يُسِرُّ بهذه الكلمات لرفيق دربه كريم، ويحدّثه بما يعتمل في صدره تجاه هذا الرجل.

كان البعض يشكك في صدق نياته، اسمه الحقيقي **جاسم الجابي**، هو لا يعترف كثيراً بهذا الاسم، فقد عاش عدة سنوات في أمريكا، حيث أكمل دراسته العليا هناك، واتخذ اسماً غربياً، يمتلك ثروة طائلة، ورثها عن أبيه بعد موته المفاجئ، عاد إلى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين.

«**أحمد.. إنك تعلم أن لنا الظاهر فقط، وليس لنا الدخول في النيات، ولكن على كل حال.. لا بد أن نكون على حذر**»، رد كريم، لم يكن يتحدث كثيراً في مثل هذه التجمعات المفتوحة.. خشيةَ لفت الانتباه، أو وجود جواسيس يعملون لمصلحة المحتل.

استأذن كريم وأحمد بالخروج، سيذهبان لتعزية الأسر المتبقية، المصائب تتساقط على هذا الحي الهادئ، والاحتقان ضد أمريكا يتنامى ويزداد.

«**سنزور عائلة المهداوي أولاً ثم نتوجه بعدها إلى عائلة قاسم النعمان**»، قالها كريم.

هز أحمد رأسه موافقاً.

كانا يَعْبران بجوار مبنى مكون من ثلاثة طوابق، أصبح مهجوراً.. بعد أن تدمرت أجزاءٌ كبيرة منه أثناء القصف الأمريكي: «**أفسد الغزاة كل شيء.. كل شيء!**»، كان كريم يرددها بمرارة وهو يُنقِّل ناظريه بين المبنى المهدّم وبين طفلةٍ كانت تبحث في حاوية للنفايات.. ربما عن شيء تسدّ به جوعَتها!

وصلا إلى منزل **مصطفى المهداوي**، وجدا والده بالباب، كان شيخاً فانياً، ما عاد يحتمل شيئاً من نوائب الدهر، صُعق كثيراً لمقتل ابنه، كان يهذي بِاسْمه كثيراً، بدأت تظهر عليه بوادر الخرف، أصبح يَذْرع الطرقات ببعض ملابس ابنه.. ويستجديه بحق أُبوّته أن يعود، وأن يرحم وحدته.. وشوقه إليه!

تأثر كريم بهذا الموقف كثيراً، لا أصعب من حزن الوالد على ولده، يُربّيه على فاقة، ويحتويه بفؤاده حتى يُورق.. ثم لا يلبث أن يُجتث من أصله وعروقه!

دخل كريم وأحمد مجلسَ العزاء، قدما واجب العزاء لأقربائه وذويه، كان الحزن بادياً عليهم، الكل هنا يشاركهم مصابهم، ويظهر التعاطف لهم.

خرجت عليهم طفلة القتيل **سمر**، أربع سنوات.. لم تعرف فيها سوى الحب والبراءة، تساءلت بعفوية: «**بابا ويّاكم؟**»، كانت تُنقِّل ناظريها بينهم.. وتمد يديها الصغيرتين مستفهمة!

«**حبيبتي.. بابا راح للجنة**»، أجاب خالها، وأماراتُ دمعه تفضحه.

راحت تركض نحو أمها، كانت تضع يديها على رأسها.. استنكاراً بأن يوجد في البيت رجالٌ في غيبة والدها!

ثم ذهبتْ فَرِحةً إلى غرفتها، تنتظر قدوم والدها الذي وعدها قبيل اعتقاله بأيام بأنه سيجلب لعبةً لها، استغرقتْ في نومها.. وهي تتمنى أن تستيقظ على وقع قبلاته الحارة!

١١

ما زال حي الحارثية يتألم لمُصابه، ولن يستطيع نسيان هذه الحادثة بسرعة، الكل صار يتألم هنا، حتى الجمادات، العراق أصبح يحترق.. وأرض العراق تنعيه، الأطفال حلّت بهم البأساء، الجميع يتحسس رقبته، ولا يعلم من أي نصلٍ سيأتي سهم نهايته!

المقاومون الشرفاء.. وحدهم من يحمل عبء التحرير، ويُسرفون في تقديم أرواحهم من أجل الفداء!

اجتمعوا في منزل كريم، كان اجتماعاً استثنائياً.. بسبب الخطر الذي يداهمهم، افتتح **القائد عمّار** اللقاء، أوضح فيه طبيعة المعركة، والانعطاف الخطير الذي حدث في الأيام الماضية، وخصوصاً بعد مقتل الشباب الستة، كانت الأعين ترقب تصرفاته بدقة.. حركاته وسكناته، شابٌ في منتصف الثلاثينيات.. يفيض اتزاناً ورجاحة عقل، أوكلتْ إليه قيادة المجاهدين في حي الحارثية.

«**يبدو أن لديهم معلومات استخباراية عن جهة التنفيذ!**»، قالها كريم موجهاً حديثه للجميع.

أجاب القائد عمّار: «**بالفعل.. وإلا لما قاموا بمحاصرة حيِّنا.. وتنفيذ تلك الجريمة، يجب أن نكون على حذر**»، أخرج ورقة كانت مدسوسة في جيبه، وقال: « **لقد أعطانيها مؤذن الجامع.. العم جواد، إن التهديد واضح، وهو موجَّه لنا بلا ريب**»، الجميع يعلم بفحوى هذه الرسالة، فقد بلغ خبرها الآفاق!

«**ما رأيكم أيها الإخوة.. هل من مشورة؟**»، سأل القائد عمار.

أجاب أحمد: «**يجب علينا تأمين بيتها بحراسة مشددة، وتعليق تحركاتها حتى تهدأ الأمور**»

«**أَعتقدُ أن في ذلك خطراً على أهل بيتها.. بل وعلى أهل الحي بأكمله.. فهم لا يتورعون عن قصف أي مكان يشتبه به**»، رد كريم.

قال القائد عمار: «**يجب علينا أن نفكر في طريقة أكثر أمناً، فواضح أن شكوكهم في هذا الحي في ازدياد، وقد يقومون بمداهمات واسعة النطاق**»، نظر إلى الجميع نظرة فاحصة، وأضاف مبتسماً: «**وأنت يا سعادة الملازم.. مارأيك؟ أراك ساكتاً.. أم إنك سئمتَ من دورك التمثيلي ؟!**»

رد الملازم حامد مبتسماً: «**نعم لقد سئمت.. وسأقوم بعملية داخل القاعدة، سأُفجِّر كل شيء، وسأكتب أسماءكم في وصيتي!**»، تناول كأساً مملوءة بعصير الليمون، وشربه عن آخره، ثم أردف.. وأمارات الحديث الجدِّي عاودت ملامحه: «**لدي فكرة.. ولكن ليس قبل أن أطلب منكم أن أُقلِّل حضوري لمثل هذه اللقاءات، فلا بد أن الأمريكان بدأوا يتوجّسون من وجود عميل بالداخل، وأظن أن الكثير قد وُضع تحت المراقبة، وربما أكون منهم!**»

«**لك ذلك.. على أن توافينا بالمستجدات كالمعتاد**»، قالها القائد عمار.

«**ولكنك لم تخبرنا ما هي فكرتك؟!**»، قالها أحمد.

اعتدل الملازم حامد في جلسته بعد أن رأى الأعين قد تعلقتْ به، وتنتظر بشوقٍ حديثه: «**فكرتُ بهذا الأمر طويلاً، وخطرتْ ببالي فكرة.. أعتقد أنها حلٌ جزئي ومؤقت.. إلا أنها فعالة في مثل هذه**

الأوضاع، تعلمون أن هذا الحي صغير ومكشوف، ويسهل تتبع أي حركة غريبة فيه، و..»، توقف فجأة عن الحديث، وركز ناظريه صوب كريم، وقال: «.. **إلا أن هذا الحل لا يخلو من المخاطر، أقترحُ أن نقوم بتهريبها إلى مكان آمن في بغداد، نضعها تحت حماية إحدى الأسر مثلاً، أظن أن ذلك سيكون مُضللاً لهم بما فيه الكفاية»**

تسمرتْ الأعين على كريم، قبل أن يجيب: «**إن كان هذا رأي الجميع.. فأنا موافق»**

وعلى بعد عشرات الكيلومترات من هذا المكان..

وصل «**مبعوث المجاهدين**» إلى مركز الأبحاث، كان يحمل رسالة شفوية عاجلة، طلب مقابلة «العميل ٤» على وجه السرعة!

أما «العميل ٥» فقد كان على وشك إنهاء مهمته في توصيل شريحة إلكترونية متكاملة، كانت بحجم الكف تقريباً، تُستخدم للتوجيه عن بعد، بحيث تقوم بإرشاد الصاروخ إلى مكان وجودها، فيسقط عليها مباشرة، وتكمن أهميتها في أنها تستطيع كسر التشويش الذي تبثه أجهزة العدوّ.. بفضل التطوير الذي أضافه الفريق العلمي على تصميمها وبرمجتها.

كانت قسمات «العميل ٤» تبدو حزينة ووجلة.. حينما انتهى من تبليغ الرسالة..

«**ما هو رأي كريم في الموضوع؟**»، قال «العميل ٥».

«**موافق!**»

«**وأنا أيضاً موافقة**»، قالت «أميرة».. أو «العميل ٥»!

١٢

دخل العقيد جورج في جدلٍ حادٍّ مع العميد وليام.. بشأن الطريقة التي تم فيها قتل الأفراد الستة، كان يعارض هذه الأسلوب بقوة.

«**إنك تعلم أن ذلك سيزيد من درجة الاحتقان ضدنا، بل سنخسر بعض المتعاطفين بسبب مثل هذه التصرفات الهوجاء، إن كانوا مذنبين.. أفما كان يكفيك أن تبقيهم في السجن مدى الحياة، أو تقتلهم رمياً بالرصاص في أسوأ الأحوال؟!**»، كان العقيد جورج يوجه حديثه الساخن للعميد وليام، وبحضور التاجر جاسم الجابي.

كان مكتب العميد وليام يفوح برائحة الدخان، وبعض الأوراق مبعثرة على طاولته، الحيطان ملأى بالخرائط العسكرية، كوب الشاي فقد سخونته منذ نصف ساعة، الجميع في حالة توتر، فالقاعدة تُستهدف من قبل مجهولين، والتقنية الأمريكية أصبحت هزيلة أمام الواقع الميداني الصعب، والقيادة العليا تطلب تحقيقاً موسعاً في قضية تفجير الطائرة!

تولّى التاجر جاسم الإجابة عن اعتراضات العقيد جورج، هو يعلم أن جدالهما لا يتوقف، كلٌّ مقتنع برأيه، أراد أن يحسم الجدال: «**يا سيادة العقيد.. أنا عراقي من أهل هذا البلد، أعرفهم وأعرف طبيعتهم الشرسة، هم لا يركعون إلا بالسيف، ولا يُذعنون إلا بالقوة، أنا أؤيد الطريقة الحازمة التي ينتهجها العميد وليام معهم،..**»، وخطف نحوه نظرةً سريعة، ثم أردف: «**صدّام حسين كان يحكمهم بالحديد والنار،**

وقد نجح في ذلك، ولن تهدأ الأوضاع إلا بهما من جديد».

بُهت العقيد جورج من هذا الرد، كان يتوقع أن يتعاطف معه ابن العراق، أو على الأقل أن يكون محايداً: «**ولكن ذلك سيشوِّه سمعة أمريكا أمام العالم!»**.

أجاب العميد وليام بامتعاض شديد: «**عن أي سمعة تتحدث، متى كانت تهمّنا السمعة؟! نعم.. ربما في الحملات الانتخابية الكاذبة، أو في دعايات البيت الأبيض للعالم الثالث، إن الذي يهمنا بالدرجة الأولى هو حماية مصالحنا.. ولو كان الثمن غالياً!»**

طرق السكرتيرُ الباب: «**سيدي.. الجندي (كاظم) يستأذنك بالدخول لأمر طارئ»**، أشار العميد بإدخاله من دون مبالاة.

«**أعتقدُ أن الحديث وصل إلى طريق مسدود، فليس من العدل ولا من الحكمة أن نعاملهم بهذه الطريقة، لأنه سيولد المزيد من الانتحاريين، وسيكونون ألغاماً متحركة!»**، قالها العقيد جورج وقد بدأ يخرج عن طوره.

كان الجندي كاظم لا يزال منتصباً أمامهم، ينتظر الإذن بالحديث.

«**ماذا لديك؟»**، سأله العميد وليام بجفاف.

«**سيدي.. لديّ موضوعٌ استخباري خاص»**، ونظر إلى الحاضرين.

«**قُل ما عندك.. فليس بيننا غريب!»**

أَخرجَ له تقريراً من ثلاث صفحات، كُتب عليه: «**عاجل وسري جداً»**، أقبل نحوه بارتباك واضح.. وناوله إياه، كان العميد وليام يشمئز من هيئة الجندي كاظم كثيراً، خصوصاً إذا اقترب منه، فروائح عرقه تمتزج برائحة الطعام الذي لم تزل بقاياه عالقة بين أسنانه، إلا أنه كان يُصبِّر نفسه على ذلك.. فهو يُمثِّل له ورقة

رابحة، فهو أحد الجواسيس الذين زرعهم خارج القاعدة، وكان يطلب منهم التواصل معه مباشرة، ليضمن سرية المعلومات، وليحقّق المركزية التي يؤمن بها!

اتسعتْ عيناه وهو يقرأ التقرير، عاود قراءته مرة ثانية.

«**هل أنت متأكد؟!**»، قالها العميد وليام مندهشاً!

«**نعم سيدي.. أنا متأكد**»

«**أتعني ما تقول فعلاً؟!**»

«**بالتأكيد سيدي**»

كانت أعين الحاضرين ترقبه بفضول، قال العميد وليام: «**هل يمكن هذا؟ أيعقل أن تفعل بنا فتاةٌ عشرينية كل ذلك؟!**»

أخذ العقيد جورج التقرير، وشرع في قراءته، كانت ملامحه توحي بتعجبه من صنيع هذه الفتاة الصغيرة وعبقريتها، عمرها ثلاثة وعشرون عاماً كما ورد في التقرير، واسمها «أميرة الحارث»، لقد استطاعت تدويخ القاعدة ورجالاتها لمدة طويلة!

قال التاجر جاسم بحماس: «**أخيراً سنقضي على هؤلاء الإرهابيين، سننتقم لأرواح القتلى، لا بد أن نسحقهم جميعاً.. نعم كلهم جميعاً.. فمن المؤكد أن خلفها الكثير من الإرهابيين والمرتزقة**»، قام من مكانه، وقال في تصميم: «**لقد دمروا بلادنا.. وحان وقت الانتقام**».

كان التقرير يُشير إلى معلومات استخبارية دقيقة، استطاع الجندي كاظم أن يتحصّل عليها بحكم اندماجه مع الأهالي في حي الحارثية، نجح في التخفي تحت ستار الفقر والحاجة، واستغل كرم بعض الأهالي بالحصول على غرفة يسكن فيها، ووظيفةِ عامل مزرعة،

حيث كان حراً في تنقلاته بين المنازل التي كان يأتيها بحجة التنظيف، ومتابعة مزارعها.

«**مرتضى! أين هذا الغبي؟! مرتضى!!**»، قالها العميد وليام صارخاً.

هرع النقيب مرتضى نحو مكتب العميد، كان قلبه ينبض بعنف، دائماً ما كان يخاف من مواجهته، وخصوصاً إذا كان بحضرة آخرين، فهو لا يتورع عن سبه بأقذع الأوصاف.

خاطبه العميد وليام بلهجة تهديدية صارمة: «**أريد القبض عليها حية.. أسمعت؟! أريدها حية، لن أسمح بأية أخطاء، ولو حدث ذلك.. فرأسك سيكون الثمن!**»

أشار للجندي كاظم بأصبعه آمراً بأن يخرج معه، وقال: «**أخبره بالتفاصيل!**».

١٣

عاد الملازم حامد إلى مكتبه الصغير، كل الأمور تبدو هادئة في أرجاء القاعدة.. باستثناء التوتر الذي يحدث عند أي عملية ناجحة للمقاومة، أصبح يكره العمل في هذه القاعدة، لم يعد يحتمل أكثر مما مضى، بدأت نفسه تؤنبه كثيراً.. يرى المعتقلين في وضع مأساوي، ولا يستطيع فعل شيء لهم، بل ربما تظاهر أمام الأمريكان بالقسوة عليهم، أراد أن يجعل لذلك حداً فاصلاً، ربما سيفقد صوابه يوماً ما!

في قلبه نيران تشتعل، همُّه يُشغله، ويملأ كيانه: «**إني كمصباح الطريق.. أبكي.. ولا أحدٌ يرى دمعاتي**»، ومن ذا الذي يستطيع أن يركن للدعة والسكون في بلد يحترق، ويُسحق.. كالعراق!

تَخَفف من بعض أحماله، ألقى سلاحه بطريقةٍ غير مبالية، ثم جلس على كرسيه واضعاً يديه المشبّكتين خلف رأسه، كان.. يستعرض ذكريات غائمة من حياته، تذكرها.. والدته، رحمها الله، كم عانى كثيراً حتى اندمل هذا الجرح، لم يكن رحيلها هادئاً، ولا عاديّاً.. كما البشر!

بل ما زال يذكر أنينها وهي تُغالب آلام الحروق التي توزعت في جسدها؛ جرّاء قصف عشوائي لمرتزقة الاحتلال!

أصبح يعيش في مرفأ حزن باكٍ، يرقب تتابع الأزمان عليه، ما عاد ينتشي بأيام السعد كما كان يفعل، مَرساتُه.. ما عاد يَحضنها ولا

يُرسلها كما اعتاد، صارت تشكي صدّه وهجرانه!

لفتَ نظره وجود مظروف وُضع على طاولته، كتب على ظهره: «**خاص بالملازم حامد**».

تناوله بكسل واضح، كثيراً ما يستقبل مثل هذه المظاريف.. والتي تُفتتح بعبارة «**سري جداً**»، لم يعد لها أي أهمية، صارت تُكتب في كل صغيرة وكبيرة، أصبح يعمل في بحرٍ من الأسرار!

فتح المظروف ببطء، وشرع في قراءته..

بدأت تتغير ملامح وجهه، صار يجد صعوبة في بلع ريقه.. كان ذلك يتطلب مجهوداً كبيراً منه، اعتدل في جلسته، لم يكن يصدق ما يقرأ، أحس بموجة ساخنةٍ تجتاح بدنه، بدأ العرق يتصبب منه.. بالرغم من برودة الجو في مكتبه!

وجدَ رسالةً خُطّتْ بلغة (إنكليزية) مُتقنة، كانت مختصرةً للغاية.. إلا أن فحواها تمثل خطورة بالغة، تزاحمت الأفكار والهواجس في خاطره، أحس بأنه في خطر داهم.. **وأميرة كذلك!**

كان مُرسل الرسالة.. الذي رمز لنفسه بـ **(الصديق)** يُخبر بأن العميد وليام قد علم بشأن تورط أميرة في عمليات المقاومة، وأنه أرسل قوة خاصة لاعتقالها!

احتار في أمر الرسالة، ولم يعد يستطيع استيعاب ما يجري حوله: «**هل هو فخٌ نُصب لي، ربما أنهم كشفوا أمر أميرة، ثم أرسلوا لي هذا الطعم ليرصدوا تصرفي المتوقع بتبليغ المجاهدين؟**»

«أم يا ترى أن أحدهم متعاطف معنا.. فأراد أن يُنقذ أميرة من قبضة العميد وليام القاتلة؟».

أحس بالحرارة تشتعل في أطرافه عندما غامره سؤالٌ منطقي: «..،

ولكن كيف عرفوا بأني عميل للمجاهدين؟ ولماذا اختاروني أنا بالذات؟!»

لم تتوقف هواجسه أبداً، توجه إلى المرآة لينظر إلى صورته، علّ ذلك يوحي إليه بمخرج من ورطته، رأى وجهه شاحباً ومضطرباً، سنو عمره العشرينية كانت تبدو أكبر بكثير، اقترب من المرآة ليتفحص عينه، وفجأة.. رأى أحد الجنود الأمريكان يُطل عليه من الخلف، كانت بشرته سوداء داكنة، كان يُشير إليه صارخاً بأن يرفع يديه، من دون أي مقاومة، أطلق صرخة فزع عالية، التفتَ إلى ناحيته.. لكنه لم يجد أحداً، بحث في أرجاء المكتب.. إلا أنه لم يجد أحداً!

حبّات العرق تتقاطر منه: «**يا رب.. ماذا يحدث حولي!**»، وضع يده على صدره.. متمتماً بحمد الله، فقد كانت مجرد وساوس وتخيلات، فلم ينم جيداً في الليلة الماضية، بالإضافة إلى أنه مشدودٌ نفسياً من جراء تأديته دورَه التجسسي!

تذكر أمر الرسالة، لا بد أن يتخلص منها، ستكون إدانةً دامغةً في حقه، قرر بأن يحرقها حالاً، قرأها للمرة الأخيرة.. ثم أشعل النيران فيها!

تعجب.. فالأمر ليس بالمزاح، فالرسالة حددت بشكل صريح اسم أميرة، وطبيعة دورها!

«إذاً فمحتوى الرسالة صحيح، فلا بد أنهم قد علموا بحقيقة أميرة، وبغضّ النظر عن الهدف من هذه الرسالة.. إلا أنه يتحتم عليّ أن أخبر المجاهدين!»

قرر بأن يخاطر بنفسه، فلا بد أن يصل الخبر إلى المجاهدين بأي طريقة، فلو كان صحيحاً فسيأخذون حذرهم بشكل أكبر أثناء عملية

التهريب، ولن يندم يوماً ما على تحذيرهم، أما إن كان فخاً.. فلن تصاب أميرة بأي مكروه، وربما يجد طريقة ما للإفلات!

فكّر بأن يخرج من القاعدة لإخبارهم مباشرة، إلا أنه يبقى على موعد انتهاء ورديته أربع ساعات، وسيقع تماماً في المصيدة الأمريكية.. أحس بأنها فكرة بدائية!

فكّر بأن يخبرهم بواسطة الهاتف النقال، إلا أن هذا الأسلوب مكشوف وخطر، كما إن الطرف الذي سيتصل به سيكون عرضة للاعتقال أيضاً!

شعر بالدقائق تتصرّم من بين يديه وهو لم يحرك ساكناً، قرر أن يبلغ الخبر بطريقةٍ ربما لا تكون فعالة بما فيه الكفاية، إلا أنها أقل خطراً، تناول حاسبه المحمول وفتح بريده الإلكتروني، شرع في كتابة رسالة مشفرة إلى خليل وكريم، كان يحفظ عناوينهم البريدية جيداً، ضغط على زر الإرسال.. وهو يدعو من كل قلبه أن يتمكنوا من قراءتها قبل فوات الأوان.

كانت يداه ترتعشان وهو يحذف كل ملفات «الكوكيز» المحفوظة على القرص الصلب، لعل ذلك يساعد في تضليل أي شخص يتتبعه!

وفي تلك الأثناء..

كانت السيارة التي تُقلّ أميرة في طريقها إلى إحدى الأسر في بغداد، ولم يتمكن أي أحد من رؤية البريد الإلكتروني الذي أرسله الملازم حامد!

١٤

«يبدو أننا سنفقدكِ كثيراً يا أميرة»

قالها **خليل** (أو العميل ٤) بحزن ظاهر، هو المكلف دوماً بمرافقة أميرة، كان يقود سيارته بحذر شديد، لديه تعليمات محددة بأن يتوجه بها نحو منزل أحد أصدقائه القدامى الذي سينقلهم بدوره إلى إحدى الأسر؛ التي ستستقبل أميرة لحين هدوء العاصفة!

«**ربما يكون كلامَك صحيحاً** يا خالي.. ولكني أنا التي سأفقدك، وسأفقد والدي، وأختي فاطمة»، ردت أميرة.

قال مازحاً: «**فقط ستفقدين هؤلاء؟! أنسيتِ حبيب القلب.. كريم؟! أظن أنك لن تتذكري أحداً سواه!**»، وابتلع ضحكةً ماتت على شفتيه.. وهو يرى سيارة أمامه وأخرى خلفه، كان وضعهما مريباً.. فالسيارة الأولى تهدّئ من سرعتها، والأخرى تقترب من مؤخرة سيارته.

كانت الشكوك تغمره، لم يكن متيقناً تماماً بأنهما يقصدانه، إلا أنه تعلم أن يتّبع أقصى درجات الحيطة والحذر، فأميرة تمثل أهمية كبيرة لدى المجاهدين، ولا بد من تأمين الحماية لها، تبدلت ملامح وجهه المرحة، واكتست بهالةٍ قاتمةٍ من الصرامة، لم تهدأ عيناه من مراقبة كل شيء يتحرك حوله، كان ينتظر اللحظة التي ربما يضطر فيها إلى استخدام القوة.

«أميرة.. يبدو أننا سنواجه بعض المتاعب، اخفضي رأسك بسرعة!»، قالها بشكل سريع، حتى ظن أن أميرة لم تسمعه؛ فأعادها ثانية.

انعطف خليل بشكل سريع نحو طريقٍ فرعي، ثم حدّق في مِرآة السيارة، بالفعل.. صَدَقتْ مخاوفه، فقد تبعته السيارة التي كانت خلفه، وبدأت في مطاردته، بينما توقفت السيارة الأخرى!

زاد خليل من سرعته بشكل كبير، تناول رشاشه، وضعه بجواره: **«أميرة.. احترسي.. ولا ترفعي رأسك أبداً»**، تناول هاتفه النقال، اتصل مباشرة بالمجاهدين، أخبرهم بالأمر، وطلب المساندة.

اقتربت سيارة أخرى منه، كانت مظللة بالكامل، لا يُرى مَن بداخلها، حاذته تماماً، زاد خليل من سرعته، فزادت السيارة السوداء من سرعتها.. وبدأت في محاولة تضييق الطريق عليه، وإجباره على التوقف!

ضغط خليل بكلتا قدميه على مكابح السيارة بشكل مفاجئ، فارتطم رأس أميرة بهيكل السيارة، لم يلاحظ أن الدماء بدأت تسيل منها، ولكن ذلك لا يهم في مثل هذا الوقت، قام على الفور بعكس الطريق، ومن ثم الدخول في أحد الأحياء القريبة، بدأ يسمع صوت النيران من خلفه، وضع رشاشه في حضنه: **«يارب.. كن معنا»**.

كانت أميرة متكورةً على نفسها، منحنيةً نحو الأسفل، لا تعي أيَّ شيء مما يحدث حولها، سوى أنها في مطاردة عنيفة، صوت إطلاق الرصاص يرعبها، توجّستْ.. ربما انكشف أمرها، الوقت يمرّ عليها بطيئاً قاتلاً، ما أثقله عند المصائب، أصبح كل شيء حولها جحيماً لا يُطاق، تختفي اللذة والبسمة، وسكينة الروح! أميرة.. العذراء التي لا تُطيق النائبات، صارت الآن في مواجهة مباشرة مع النيران، ولا تملك لها دفعاً!

استهدف المهاجمون إطارات سيارتهما بشكل مباشر، ولم يتم إطلاق أي رصاصة فوق مستوى الإطارات، القناصةُ يتذكرون التعليمات جيداً، فالقيادة تريد أميرة حية.. مهما كلف الأمر!

أُتلفت الإطارات الخلفية، وبدأت سيارة خليل في التباطؤ تدريجياً.. وسط تناثر الشرر الناري حولها؛ جراء احتكاك معدن السيارة بالإسفلت.

«**أميرة.. سنضطر إلى.. إلى المجازفة.. ليس لدينا خيار آخر**»، بالكاد استطاع خليل أن يتم عبارته، فعقله مشغول بإيجاد فكرةٍ آمنةٍ للخلاص!

أوقف السيارة وسط الطريق، بعدما انعطف خلف أحد الجدران، ترجّلا من السيارة، وركضَا بمحاذاة الجدار ليؤمن لهما الطريق، توجّها مسرعين صوب «سوق شعبي» صغير، كان مظهرهما يلفت الأنظار، وأمارات الفزع تبدو عليهما بشكل واضح، أدى اندفاعهما المفاجئ والسريع نحو السوق.. إلى توقف حركة الناس لحظة، ومن ثم إدارة كل الأعناق نحوهما!

حاوَلا التخفي بين الناس.. فالجنود يتبعانهما، إلا أن ذلك غير ممكن، كان خليل ينتظر معجزة للخلاص، سيدلّ عليهما أحد الخونة، فالأرض ملغمة بالجواسيس، أو ربما سيصادفان كميناً للشرطة العراقية، تزاحمت الوساوس في خاطره، خانقةً كانت!

كانت أميرة تتعثر في عباءتها، لم تعتد على الركض والتخفي، أحست بأن قواها تنهار، بأن غصنها يذوي، لا تعلم إلى أين المصير.. يدُ خالها تجذبها بعنف مؤلم، وتقودها إلى حيث لا تدري!

لفت نظر خليل شابٌ عشريني، يبدو مفتول العضلات، قوي البنية،

كان يُشير لهما بأن يركبا سيارته، عارِضاً المساعدة عليهما!

اتجه خليل مباشرة نحوه، حدثته نفسه: «**ربما يكون عميلاً، أو خائناً؟! أو ربما يكون متعاطفاً معنا**»، لم يكن يدري! إلا أنه اندفع إليه بكل جوارحه، ولا يدري لماذا فعل ذلك بالضبط!

ركبَا سيارته، كان خليل يشعر بالغربة، وتناقضٍ في المشاعر، فلم ينبس بأي شيء، أما أميرة.. الأنثى الرقيقة؛ فقد ماتت مشاعرها، وما عادت تحس حتى بالفزع!

صارت كأوراق الخريف، تتهاوى من دون مقاومة، تحملها الريح إلى حيث هلاكها!

«**لا داعي لأن تُخبراني بأي شيء، فقد فهمتُ القصة كاملة، وهذا أقل ما أقدمه لكم أيها الأبطال**»، بادر الشاب العراقي بالحديث.. مُبدداً الصمت الذي أطبق بينهم، ثم أردف: «**أين تريد أن أُوصلكم؟**».

ردّ خليل.. وهو يراقب المنطقة المحيطة: « **أخرجني من هنا فقط.. أخرجني إلى أي مكان**»

ازدحمت الأفكار بمخيلة خليل، كان يتعجب من شهامة هذا الشاب، وكيف أنه عرّض نفسه للخطر من أجل شخصين لم يرهما قط في حياته، ولا تربطه بهما أي علاقة، أيقن بأن الشهامة العربية القديمة.. ما زالت متأصلة في أعماق أبناء الرافدين.

عمد الشاب العراقي إلى التنقل بشكل عشوائي بين الأزقة.. لمدة عشر دقائق، حتى يطمئن الجميع لعدم تتبع أحدٍ لهم، كان خليل دائم الالتفات إلى الخلف، لا يهدأ أبداً، رشاشه بين يديه، مستعد لاستخدامه إذا لزم الأمر.

تبادلا بعض الأحاديث الجانبية، ثم تغيرت لغة خليل (الحذرة) مع

الشاب، وأخبره بالقصة كاملة، أخبره خليل بأنهما مطلوبان أمنيّاً، وأن برفقته أميرة، ابنة أخته.. التي كان ولا يزال لها باع طويل في جهاد المحتل، وأنهما سيمضيان في هذا الدرب.. حتى خروج المحتل ذليلاً صاغراً!

تعجبتْ أميرة من خالها!

كيف له أن يذكر كل هذه التفاصيل، ويثق بهذا الغريب بهذه السرعة؟!

لقد أفشى للغريب طرفاً من حقيقة دورها، احتارتْ من فعلته، لم تعهدْ من خالها مثل هذا التساهل من قبل!

أردف خليل: «**لقد كُنا في عملية تهريب لأميرة، كنا سنقوم بإخفائها، لأنه.. وكما يبدو قد انكشف أمرها، فقد نصبوا لنا كميناً فاشلاً، والفضل في إنقاذنا يعود لك**».

اتسعتْ عينا أميرة وهي تسمع حديث خالها: «**ماذا أصابك يا خالي.. هل فقدت عقلك؟! هل قام هذا الشاب بعمل سحر لك؟!**»، حدثتْ نفسها!

انتخى الشاب، وقال بأن هذا واجبه في مساعدة الشرفاء من أبناء هذا البلد، وأنه سيبذل المستحيل في سبيل مساعدتهما حتى النهاية، استحلفه بأن يزوره في منزله إذا سنحت له الظروف.

رد خليل: «**هذا من كريم أصلك.. أيها الحقير!!**»، كان وقع كلمة «الحقير» مدوياً في أرجاء السيارة، أطبقت لحظة صمت قصيرة، ثم بادر خليل بتوجيه الرشاش نحو رقبة الشاب، وقال بصوت واثق: «**أرجو أن تتوقف بكل هدوء.. ومن دون إثارة أي مشاكل!**»

ظهرت علامات الدهشة ممتزجة بالخوف على وجه الشاب، لم يكن يصدق ما يحدث، وكذلك كانت أميرة!

«**أنا أنوي.. لقد كنت أنوي مساعدتكم، لماذا تفعل مثل هذا؟!**»، قال الشاب بارتباك واضح.

رد خليل صارخاً: «**قلتُ لك توقف.. هيّا توقف الآن.. وإلا أفرغتها في رأسك!!**»، وضغط بفوهة رشاشه على رقبته!

«**اتركني أرجوك.. هذه سيارتي الوحيدة.. أرجوك.. زوجتي.. طفلتي الوحيدة**»، كان يتوسل بصوت مخنوق، رجاء أن يتركه خليل لحال سبيله!

«**توقف أيها الثرثار.. وإلا قتلتك!**»

توقفَ بالسيارة على جانب الطريق: «**هيا انزل الآن، انزل سريعاً، ثم ضَع يديك خلف رقبتك، ولا تتحرك حتى أبتعد عنك، هل فهمت؟!**»، قال خليل.

«**أرجوك.. سيارتي.. لا أملك سواها.. أرجوك**»

طاش الغضب بخليل، ولم يعد يحتمل، فأطلق رصاصةً.. سَمعتْ أميرة دويّها المزعج، تحسس الشاب رأسه، لم يصبه شيء، لقد فهم الرسالة جيداً، إن خليل لا يرحم أبداً، وقد كانت رصاصةً تحذيرية، مرت أمام رأسه، حمد ربه أنه مازال على قيد الحياة، وبادر بالنزول من السيارة مسرعاً، والخوف يحيطه به من كل جانب!

«**سأترك سيارتك في مكان عام، ابحث عنها.. ستجدها حتما!**»

كانت أميرة تراقب ما يجري في دهشة كبيرة، لم يصدر منها أي تعليق، سنواتها الغضة لم تشفع لها بتحمل مثل ذلك!

أردف خليل قائلاً: «**لا تقلق.. ستجد المفتاح في مكان ما داخل السيارة!**»

نزل خليل من السيارة، وفوهة رشاشه موجهة صوب الشاب، احتل مكانه في القيادة، وصرخ فيه بأن ينكِّس رأسه حتى يُغادرَا، ابتعدا بالسيارة، كان خليل يراقب الشاب وهو لا يزال يضع يديه خلف رقبته.. حتى تصاغرت صورته.. ومن ثم غابت تماماً عن ناظريه.

«**لماذا فعلتَ كل هذا يا خالي؟! لا يحق لك فعل ذلك! لقد حاول مساعدتنا فقط!! ولم ألحظ عليه ما يثير الشبهة!!**»، قالت أميرة.

انتظر الشاب العراقي في مكانه حتى غابت سيارته المسروقة عن ناظريه، لم يَخرق أيَّ أمرٍ أمره به خليل، لم يكن يصدّق ما يحدث، كان يكيل اللعنات لخليل، ورفيقته!

أخرج الشاب هاتفه النقال.. يده ترتعش..

«**ألو.. نعم**»

لقد كان يُحادث النقيب مرتضى!!

١٥

«إنه أغبى عميل رأيته في حياتي!!»، قالها خليل ضاحكاً.

«لم أفهم شيئاً يا خالي، لم أعد أعي ما يحدث حولي! هل يمكن أن تشرح لي الأمر؟!»

«سأشرح لك الأمر بالتفصيل.. ولكن ليس قبل أن تركبي بجواري!»

توقف خليل بالسيارة على جانب الطريق، وقام بتفتيش السيارة بشكل دقيق، تأكد بأنها آمنة، ولا ضير من استخدامها.

استقلا السيارة ثانية، بادرته أميرة بسؤالها: **«هيّا أخبرني؟!»**، كانت متلهفة لمعرفة ما يحدث، ضميرها يؤنبها، فلم تكن مقتنعة بما فعل خالها بالشاب العراقي!

«لقد قلتُ لكِ يا أميرة بأنه أغبى عميل رأيته في حياتي، لقد أيقنت من ذلك حينما سمعته يذكر اسمك أثناء حديثي معه»، اتسعت عينا أميرة عندما أردف خالها قائلاً: **«مع أني لم أذكر اسمك أمامه أبداً، لقد كان يعرفك من قبل، وكان في ما يبدو مكلفاً بمراقبتك»**، فكر خليل قليلاً، ثم قال: **«لست أدري عن حقيقة دوره بالضبط، لكنه ذكر اسمك أمامي بالخطأ، ومع ذلك فلم يشعر ذلك الغبي بالأمر!»**

«أيها الأحمق.. كيف استطاعَا الهرب منك؟!»، قال النقيب مرتضى صارخاً.

«أقسم بالله أنا لا أدري.. لقد انقلبتْ تصرفاتُه فجأة، لقد.. لقد أنزلني

تحت تهديد السلاح، لقد حاول قتلي»، رد الشاب العراقي.

«وأين هو الآن؟!»

«لقد أفلت منا.. لقد ابتعد كثيراً.. ولا أظن بأننا سنستطيع اقتفاء أثره»

رد النقيب مرتضى وهو يزمجر من الغضب: **«اخرس أيها الأحمق.. أنا لم أطلب رأيك، لا يستطيع أي أحد الإفلات مني! اسمع أيها الغبي.. أي طريق سلك؟»**

أخبره الشاب بالطريق الذي اتجه صوبه خليل، ثم سمع صوت الهاتف يُغلق في وجهه.. شعر بحرارة تعتري خديه.. كأن أحدهم صفعه على وجهه! تحسّر على ما آلت إليه الأمور، أَسيتم طرده من الخدمة؟! أم سيقدَّم للمحاكمة؟! أحس بشعورٍ محبط يعتريه وهو يتذكر أنه فقد سيارته أيضاً!

تناول النقيب مرتضى جهاز اللاسلكي، وقام بمحادثة سريعة، طلب فيها من وحدة التنسيق الأمريكية بأن توجه طائرة هليكوبتر على وجه السرعة.. لمراقبة الطريق الذي سلكته أميرة!

ضغط على أسنانه من الغيظ!

لقد كان يغلي حقداً وكراهية ضدها: **«أميرة.. أيتها الفاجرة.. لن تفلتي مني هذه المرة!»**، حدّث نفسه، لَكَم كان يتمنى لو أن العميد وليام لم يطلبها حية، سيكون الأمر أسهل حينئذ، فقط.. صاروخَا «هيل فاير».. وينتهي كل شي!

وبينما كان خليل مستغرقاً في حديثه الودي مع أميرة.. إذ أحس بسيارة ترتطم بهم من الخلف، كانت تحاول إتلاف سيارتهم، لقد كانت تكرر الارتطام بشكل عنيف!

ثم.. لاحظ خليل سيارة أخرى أمامه.. كانت تحاول إيقافه!

«أميرة.. يبدو أننا سنواجه بعض المتاعب مرة أخرى.. اخفضي رأسك بسرعة!»

تناول رشاشه بسرعة.. ووضعه بالقرب منه، انعطف نحو الجهة اليسرى محاولاً تجاوز السيارة التي أمامه، لاحظ أنها تعترض طريقه، وتحاول إجباره على تخفيف سرعته!

اختل توازنهما على وقع الاصطدام الذي أحدثته السيارة الخلفية، كان صاحبها يرتطم بهم بعنف، ويطلق النيران في الهواء.. مشيراً له بأن يتوقف، تمنى لو يجد مساندة من المجاهدين، فالكثرة أحياناً تغلب الشجاعة!

أزال خليل زر الأمان من رشاشه، وأداره على الوضع الآلي.. ثم التفت إلى الوراء: «**أميرة.. اهتمي بالمقود**»، وأطلق وابلاً كثيفاً من النيران نحو السيارة الخلفية، توزعت طلقاته على جميع أنحائها.

ثم وجّه رشاشه سريعاً نحو السيارة التي أمامه، وبادر بإطلاق عدة رصاصات نحوه، تعجب من عدم مقاومتهم له، لم يسمع طلقة واحدة من قبلهم، رأى السيارة التي أمامه تفقد اتزانها، وتبدأ في التهادي يميناً، زاد من سرعة سيارته متجاوزاً من الناحية اليسرى.

تنفس خليل الصعداء وهو يرى السيارتين خلفه وقد تجاوزهما بنجاح..

إلا أنه أُسقط في يديه وهو يرى نقطة تفتيشٍ أمامه!

هو يحفظ هذا الطريق عن ظهر قلب، لم تكن به نقاط تفتيش مطلقاً.. يبدو أنها حديثة جداً!

خفف من سرعته، واستعرض سريعاً الأساليب التي يمكن أن ينتهجها للإفلات..

ثلاث سيارات تابعة للشرطة العراقية تعترض الطريق، ومن خلفها يتمترس عدد من الجنود، والقناصة ينتشرون في كل مكان.. كل الأعين تتفحصه، أصبح مكشوفاً أمامهم، ولا مجال للتراجع!

«**أميرة.. لقد وقعنا في مصيدة.. أميرة.. اهتمي بنفسك**».

كانت أميرة تعيش لحظات حرجة من حياتها، لم تتعرض لمثل هذا الموقف قط، أيقنت بأن نهايتها قد حانت، كانت تبحث عن كلمةٍ تُرددها قبل الموت، حاولت أن تتذكر الشهادتين، لسانها ينعقد عليها، تحس بأن قلبها يرتفع.. يقترب من حلقها، يُزاحم ليخرج، مرت ذكريات خاطفة على خاطرها، استعرضت لحظات مغتصبة من أيام عمرها، علمتْ بأن أمرهم قد انكشف، وأن رأسها هو المطلوب، لم تحتمل أنوثتها كل هذه الأحداث.. أغمضت عينيها!

أشار لهم أحد الجنود بالتوقف، فوهات البنادق تُشهر سمومها بحقد، كان خليل يحتضن سلاحه بيمناه، والأخرى تتشبث بمقود السيارة: «**أميرة.. أميرة.. المقود.. ليس لنا طريق سوى أن نغامر**».

زاد خليل من سرعة السيارة لأقصى حد، واقتحم المكان بشكل عمودي، انتصب بجذعه.. وفتح رشاشه على الجميع، اختبأ الجنود خلف السيارات، لم يكن مسموحاً لهم بالرد، الأوامر تشدد على هذه النقطة، وحدهم القنّاصة.. هم من سيتكفل بالمهمة!

تبادل الطرفان إطلاق النيران، كثيفةً كانت، استهدف القناصة جهة خليل بشكل مباشر، كانوا يتحاشون إصابة أميرة.. القيادة تريدها حية!

اصطدمت السيارة بعنف بإحدى سيارات الشرطة، ثم ارتطم رأس خليل بالزجاج الأمامي، تصاعد دخان كثيف من سيارته التي بدأت سرعتها تتناقص تدريجياً.. حتى توقفت وهي تشتعل!

عمَّ الهدوء أرجاء المكان، خفتت جميع الأصوات.. سوى صوت الأنين والنيران!

اندفع الجنود العراقيون ومن خلفهم الأمريكان نحو السيارة بحذر، الكل يختبئ خلف سلاحه، وعيناه تتقافزان فزعاً، سمعوا أنيناً خافتاً ينبعث من السيارة، تطوع جنديان.. وبادرًا بالاقتراب في خطوات متمهلة، كل شيء كان ساكناً.. لا حراك، ولا حياة!

أطلّ أجرؤهما برأسه.. وجد خليل مضرجاً بدمائه، ووجهه مصبوغاً بلون الدم، كان الأنين ينبعث منه، أما أميرة فقد كانت ساكنةً لا حراك فيها.. قد تكوّر جسمها على بعضه، ودمها يسيل من أنفها.

جاء النقيب مرتضى بعد أن تأكد من انتهاء العملية بنجاح، كان قلبه ينبض فزعاً من أن تموت أميرة، اقترب منها، اختبر نبضها: **«ما زالت حية، يبدو أنها في غيبوبة، باقر.. اطلب الإسعاف حالاً»**.

انتبه النقيب مرتضى لأنين خليل وتوجعه، نظر إليه نظرةَ حقد دفينة: **«لقد وقعتَ في يدي أيها الفأر الصغير»**، أمر جنوده بسحبه إلى الشارع، كانت يده اليمنى ملتحمة بالمقود الذي طحنها تماماً، سحبوه بعنف.. حتى انخلعت يده، اقترب منه النقيب مرتضى.. ونفسه تزهو فرحاً بنشوة الانتصار، ثم قال: **«لعنةُ الله عليك»**، وجّه رشاشه نحوه، وأمر الجميع بالابتعاد.. أفرغ في صدره خمس رصاصات..

ثم.. أمر جنوده بالانصراف سريعاً!

١٦

قهقهات العميد وليام تملأ المكان، يبدو منتشياً لأقصى حد، كان في رفقة العقيد جورج إلى سجن أميرة الانفرادي، حيث أجريت لها إسعافات أولية. . بعد أن أصيبتْ ببعض الجروح السطحية في وجهها ويديها، بالإضافة إلى كدمات متفرقة في جسدها. . جراء الاصطدام العنيف الذي تعرضت له.

«هل علمتَ الآن يا جورج معنى أن نستخدم القوة ضد هؤلاء العبيد؟!»

«!!»

أطل العميد على أميرة من خلف القضبان، وجعل يتأمل فيها للحظات.

قاموا بإبدال ملابسها بأخرى أعدت خصيصاً للسجينات، شعرها كان مكشوفاً، وجهها. . يداها. . تألمتْ لذلك، حاولت سترها، لم تجد شيئاً تتدثر به. . سوى قطعة قماش منتنة أعدت للنوم، كانوا يأمرونها بأن تنزعها وقت وجودهم، كانت تجاهدهم دوماً. . إلا أنها تضعف أمام السياط! لم يسبق لها أن خرجتْ أمام الغرباء بهذه الهيئة، النصال تتابعت عليها؛ الأسْر، وفقدان الخال والأحباب، والخوف من المجهول!

كانت المشاعر تتصارع في جوف أميرة، قلبها ملّ من الخفقان،

دمعاتها، قلة حيلتها، وهوانها على الناس!

تذكرت فجأة.. كريمها!!

رأت صورته واضحة، كان ملاكاً.. يشع طُهراً ونقاءً، كان يتبسم لها، وعدها بأنه سينقذها، لقد سمعته.. لقد كان يُصبرها، كان يواسيها، أقسمت بأنها سمعت صوته: «**يارب.. عجل بقدومه!**»، حدّثت نفسها.

«أميرة سعدون الحارث، مهندسة إلكترونيات، متخرجة من جامعة بغداد، حصلتِ على الترتيب الأول على دفعتك، يبدو أنك كنتِ نابغة بما فيه الكفاية لتطوري من صناعة «الشرائح الذكية»، إلا أنكِ استخدمتِ هذا النبوغ في الطريق الخطأ!»

أطلق العميد وليام ضحكاته الماجنة في الهواء، وهو يردد على مسمع أميرة قوله: «**أظنكِ لا تعرفين من أكون.. أنا الرجل المطاع في هذه القاعدة، الذي لا يخفى عليه خافية.. العميد وليام فرانك**».

كان ينظر إليها نظرات فاحصة، يقلّب عينيه في أجزاء جسدها، لم يتورع عن ذلك، فثقافته لا تنهاه عن شيء، ودينه ـ إن كان يدين بشيء ـ لا يعظه بمعروف ولا ينهاه عن منكر، ولغته الإنكليزية لا تحوي مرادفاً دقيقاً لمعنى «العفة»!

«**تبدين جميلة جداً يا أميرة، ما أجمل تضاريس جسدك، كيف عرّضتِ هذا الحُسن كله للمخاطر، فالحرب لم تُخلق للجميلات**»، وضع يديه على قضبان السجن الحديدية مُركِّزاً ناظريه نحوها، ثم أردف ضاحكاً: « **هل تقبلين بي صديقاً.. سأتكفل بتجنيسك، وسأصطحبك لأمريكا، لن أكون فظاً.. فلن أجبرك على تغيير دينك، ولكني أريدك أن تتخلي عن حجابك، وتصحبيني إلى الحانات**».

تضايق العقيد جورج كثيراً من هذه التصرفات، لا يحب طريقة

الاستفزاز التي ينتهجها العميد وليام، فهي لا تليق بمسؤول كبير في مثل منصبه، لم يعد يحتمل.. خرج من عنده سريعاً!

رأى العميد وليام ردة فعله.. فلم يأبه لذلك كثيراً.. فهو لا يهمه معارضةُ أحدٍ ولا موافقته، تربيته العسكرية جعلته يستفرد بالرأي، ويُقصي الآخرين!

وفي تلك الأثناء.. كان النقيب مرتضى والملازم حامد متجهين إلى سجن أميرة، كانا يُبديان أحياناً لبعضهما الود الظاهري، إلا أنهما لم يتآلفا قط، فكلٌّ منهما يلعن صاحبه في الظلام!

وصلا إلى العميد وليام، هنّآه كثيراً على هذا النجاح الكبير، كانت علامات الفخر تظهر جلية على قسمات النقيب مرتضى، لقد استطاع إرضاء سيده.. وهذا منتهى أمله!

«**مرحباً مرتضى.. لقد أثبتَّ أنك مقاتل محترف، أَعدُك بالترقية قريباً**»، لم يستطع العميد كتم مشاعره الجياشة، ربما هي من المرات القلائل التي يُرى فيها ضاحكاً مع جنوده.. نشوةُ النصر تغيّر كل شيء.

نظر العميد إلى أميرة، ثم قال: «**أرجو ألا تراوغي معنا كثيراً، فنحن نعرف عنك كل شيء، ستكونين في مأمنٍ في ظل مملكتي.. بشرط أن تتعاوني معنا**».

حاول الملازم حامد أن يُظهر فرحه باعتقالها، تدرب على هذا الموقف مراراً، أراد أن يكون عفوياً، وقاسياً إن لزم الأمر، إلا أن الموقف كان أصعب مما كان يتخيله، كاد الدمع أن يفضحه، أشاح بناظريه عنها، لم يتخيلها أسيرة قط، هي المرة الأولى التي يرى فيها وجهها، ولولا خشية شكّهم فيه لما نظر إليها، كادت العَبرة تخنقه مرة أخرى، شعر بالذل يكسو جسده الواهن، لم يكن يملك من أمره شيئاً، إنها أميرة.. تلك الفتاة العظيمة، التي طالما

ناصرت المجاهدين بوقتها وجهدها، وها هي الآن تتكبد الويلات في سبيل ذلك!

قال العميد بحزم: «**أميرة.. كوني متعاونة معنا في التحقيق، سيتولى مرتضى أمر التحقيقات، لن تدوم طويلاً، ربما ساعات قلائل!**»، التفت نحو النقيب مرتضى مُصدراً أوامره: «**تولَّ أمرها.. ولكَ الحرية في التصرف في كل شيء**».

«**أمرك سيدي**».

وقبل أن يُغادر العميد.. توقف فجأة، ثم وجه نظراتٍ حاقدة صوب أميرة.. وقال: « **نحن أسياد العالم، لا يستطيع أحدٌ الإفلات منا.. حتى ولو كان إلهكم!**».

احمرّ وجه الملازم حامد من هذه الوقاحة، تحسس سلاحه.. وكاد يفقد أعصابه، إلا أنه تريث حتى يتلقّى الأوامر من المجاهدين، فبقاؤه في القاعدة أصبح أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى.

اقترب النقيب مرتضى من أميرة، ما زالت نشوة النصر تُظلّله، سيُكتب هذا الإنجاز في سجل تاريخه البطولي، اقترب منها وقال: «**لن أزعجك بكثرة الأسئلة، فما تزالين ضيفةً عندنا، ولكن لديّ سؤال واحد.. أرجو أن تجيبيني عليه بشكل مباشر، فلديّ خبرة طويلة في استخراج المعلومات بطرق مختلفة، وأظن أننا لن نحتاج إليها**».

أمرَ أحد الجنود بإحضار «ملفٍ كبير» حصلوا عليه أثناء مداهمة منزلها، ثم وضعه أمامها وقال: «**أظنكِ تعرفين هذا الملف جيداً.. لقد وجدنا في غرفتكِ رسالةً تطلب منك القيام بحفظ هذا الملف في مكان آمن**»، أخرج لها الرسالة ضاحكاً، ثم قال: «**كل أوراقك يا أميرة باتت مكشوفة، قليل من التعاون.. وتنتهي القضية، أخبريني الآن.. من هو مرسل هذه الرسالة؟**»

نظرت أميرة إلى الملف، لقد كان هو بالفعل، كان يتكون من قرابة مئتي صفحة من الحجم الكبير، تم وضع غلاف سميك عليه ليحفظه من التلف.

قال ساخراً: «**لا تريدين الحديث الآن؟! يبدو أن أحداث اعتقالك قد أصابتكِ بصدمة قاسية، سأعود إليكِ لاحقاً لنستكمل الحديث!**».
كان يركز النظر إلى صدرها بطريقة قذرة، ابتسم بخبث.. ثم انصرف، كانت طيلة الوقت منكسة رأسها، منزوية في زاوية سجنها.. ليس لها حيلة، أنثى كريمة.. تلقفتها أيد تصوغ معاني الخسة والجريمة!

«**ألا ليتك يا كريم بجواري.. يا رب عجِّلْ بقدومه!**»، لا تشعر المرأة بالأمان إلا في جوار رفيق دربها، إلى حضنه تلجأ، وإليه تنفث وجع صدرها!

تأبط النقيب مرتضى «الملف» بين يديه، كان يحمل كنزاً ثميناً، لا بد أن يقرأه بتمعن، فهذه أولى خطوات التحقيق، كان يشعر بالزهو وهو يغادر المكان، فقد استطاع القضاء على الأسطورة التي أرّقتهم طويلاً، وحان له أن يرتاح، وينام قرير العين.

«**أميرة.. هل كل شيء جاهز؟!**»، سأل الملازم حامد.

أشارتْ أميرة بالإيجاب للملازم حامد، كانت حَيّية، لم تعتد على محادثة الغرباء، خرج الملازم سريعاً.. ليقوم بالمهمة التالية!

توجه إلى مكتبه، وهو لا يصدّق تسارع الأحداث بهذه الطريقة!

١٧

جاءت الأوامر للمجموعة التي كانت بانتظار أميرة في بغداد بأن تتخفّى سريعاً، كانت ضربةً موجعةً للمجاهدين، أصابتهم في مقتل.. فوقوع أميرة في الأسر يعني الكثير، فبالإضافة إلى أنها تعرف أسراراً خطيرة عنهم.. إلا أنهم توجسوا من احتمال كون جماعتهم قد تم اختراقها!

دعا القائد عمّار إلى اجتماع عاجل، حضره كريم وأحمد وثلاثة قادةٍ ميدانيين، وسيلتحق بهم الملازم حامد حين خروجه من القاعدة.

اجتمعوا هذه المرة في إحدى المزارع النائية التي تعود ملكيتها إلى والد أحد المجاهدين، اتبعوا أسلوباً معقداً في التضليل حتى وصلوا إلى هذه المزرعة، دخل الجميع إلى غرفةٍ في طرف المزرعة.. أُعدت لتكون مخزناً وهمياً، بينما هي في الحقيقة مدخلٌ لقبوٍ تحت الأرض.. يتكون من عدة غرف، بناها صاحبها منذ عشرات السنين بقصد إيواء عائلته أثناء الحروب المتتالية على العراق!

جلسوا على الأرضية المتسخة.. غير مبالين بالرائحة الكريهة التي تنبعث جراء إهمال تنظيفها، كانت ملامحهم صارمةً لأبعد حد، غابت الروح المرحة التي كانوا يُعرفون بها، افتتح القائد عمار

اللقاء شارحاً خطورة الموقف وحساسيته، ثم تعهد للجميع أمام كريم بأنهم لن ينسوا أميرة، وأن قضيتهم واحدة، وعِرضهم واحد، وسيسعون في سبيل فك أسرها ولو كان دون ذلك إزهاق أرواحهم جميعاً.

ظَهَرَ كريم متماسكاً بينهم، عيناه حادّتان كعادتهما، لم يتغير منه شيء.. سوى مَسحةِ حزنٍ ظاهرة تُحيط به، و قلبٌ حازم يؤزّه نحو الانتقام أزاً! نظر الجميعُ إليه وهو يتأهب ليرد على حديث القائد عمار..

«**الحمد لله.. الحمد لله**»، رددها كريم مراراً وهو يُركِّز ناظريه في نقطة لا تلامسها الأعين، فقد كان مُصابه كبيراً، وفي أمرٍ لطالما ذاد عنه.. يموت العربي الأصيل صبراً.. ولا يرضى بأن يُمَسّ عِرضه، ولربما اقترف الموبقات، واستحل الكبائر، وغاص في أقذع الرذائل.. إلا أنه لا يتنازل أبداً عن شرفه.

«**إنا لله وإنا إليه راجعون.. اللهم آجرنا في مصيبتنا هذه واخلفنا خيراً منها**»، لم يكن كريم يرغب في الحديث حول هذا الموضوع، كان شديد الوطء عليه، حاول تغيير مسار الموضوع سريعاً.. فأخرج ورقة من جيبه ثم قال: «**هذه هي الرسالة التي وصلتني من (الملازم) حامد، كَتَبَ فيها أسماء ثلاثة أشخاص متورطين في هذه الخيانة، استطعنا القبض على واحد منهم فقط، وقد أحضرناه معنا، وما زال الإخوة يتحرّون عن البقية**»، قام بإعطاء الرسالة للقائد عمار ثم أردف: «**أظنكم تعرفونه جيداً.. إنه (كاظم)، المزارع الذي كان يهتم بحديقة عمي، كان قريباً جداً من دارهم، فلا بد أنه حصل على بعض المعلومات الاستخبارية الحساسة عن تحركاتِ.. أميرة**»، ونطق اسمها بصوت خفيض.

«فلنبدأ استجوابه الآن.. حتى نتخذ الخطوة التالية ونحن على بصيرة من أمرنا»، رد القائد عمار.

أُحْضِرَ الجندي كاظم بين أيديهم، كان مقيّد اليدين والرجلين، وعيناه مغطّاتين بقطعة قماش، كان يهذي بكلمات غير مفهومة، ويستجدي العفو والصفح، ويرجو أن يطلقوا سراحه من أجل أطفاله الذين ينتظرون عودته، وليس لهم عائلٌ سواه!

وصلت الرسالة إلى كريم في اليوم نفسه الذي اعتُقلتْ فيه أميرة، كانت تُشير إلى أن الجندي كاظم هو رأس خلية تجسسية زُرعتْ في حي الحارثية، وتقوم برفع التقارير إلى القاعدة بشكل دوري.

فضّلَ كريم أن يُوكِل أمر القبض عليه لأحد المجاهدين.. خشيةَ أن يبدر منه ما لا يستطيع له دفعاً، وبالفعل تم اعتقاله من دون مقاومة، ولم يستغرقوا جهداً كبيراً معه أثناء التحقيق.. فقد انهار سريعاً، واعترف بكل شيء، وها هو الآن يَمثُل بين يدي القيادة لإجراء الاستجواب الأخير معه.

«هل تُقرّ بأنك كنت تتبع المجاهدين بغرض تقديم معلومات استخبارية للمحتل؟»، سأله القائد عمار بعد أن أزال الغطاء عن عينيه.. ليمثِّل ذلك حرباً نفسية له بوجوده بين عدد كبير من القادة!

«نعم.. ولكن كان قصدي بذلك أن..»، قاطعه القائد عمار بحزم: **«أرجو أن ترد على أسئلتي من دون أي استطراد أو مراوغة!»**

«هل تقر بأنك قدمت معلومات استخبارية عن تحركات أميرة إلى العميد وليام في مكتبه؟»

بُهتَ الجندي كاظم وهو يسمع الاتهامات الدقيقة التي كانت توجّه إليه، أيقن بالهلاك، وأن السيف لا محالةَ نافذٌ فيه، تذكر الأسلوب الدموي الذي كان يتم به قتل العملاء.. تُجزّ الرؤوس بالسكاكين، ثم تنشر صورهم على الشبكة العنكبوتية، تساءل هل سيفعلون به ذلك؟! أم إن معجزة إلهية ستنقذه، غمرته رغبةٌ مُلحّةٌ في البكاء، كان يلعن الطريق الوعِرَ الذي سلكه، ويلعن أسياده الذين زيّنوا له دربه، ويتحسر على تفاهة الدولارات التي أضحت عديمةَ القيمة أمام فقدان رقبته!

«**نعم.. قمتُ بذلك**»، قالها باكياً.

«هل تقرّ بأنك قمتَ بذلك بمحض إرادتك، ومن دون أي إكراه؟»

«نعم..»

وفي تلك الأثناء دخل عليهم الملازم حامد، قَدِمَ مباشرةً من القاعدة، كانت قسمات وجهه تحكي بما يعتمل في دواخله، فهو يُلاقي ما لا يلاقون، ويرى ما لا طاقة لهم به.. رأى أميرة وهي تُهان في الأسر، كان يتصنع الفرح أمام المحتل، وربما كالَ لها السب والشتم!

ألقى التحية على الحاضرين، صافحهم فرداً فرداً، قدّم مواساته لكريم، لم يتجرأ على النظر إلى عينيه، كان منكساً رأسه، مرت هذه الدقائق بطيئة للغاية.. وهي كذلك عند البأساء!

أخبرهم بأن أميرة على ما يرام، وأن حالتها الصحية مستقرة، وأنها تقبع في سجن انفرادي بعيد عن السجون الأخرى، تأسّفَ لأنه لم يستطع إيصال خبر استهدافها، فقد بلَغَه ذلك بعد فوات الأوان.

قال الملازم حامد: «**ولكنني توصلتُ إلى معلومة مهمة.. قد تفيدنا في معرفة الخونة**»، كانت الأعين ترقب حديثه باهتمام بالغ: «**لقد تمكنتُ من معرفة أحد رؤوسهم.. إنه التاجر جاسم الجابي، هذا الذي يُظهر للأهالي مناصرتنا، ويرائي بذلك دائماً، رأيته وهو يدخل مكتب العميد وليام، ثم سمعته في ما بعد يهنئه بحرارةٍ على اعتقال أميرة، ويعده بمواصلة دعمه!**»

كانت شخصية التاجر جاسم غير مستساغة لدى البعض منذ البداية، وقد اتخذوا منه موقفاً حذراً، وها هي الأيام تثبت صحة شكوكهم.

«**وهل له علاقة مباشرة بكاظم؟!**»، سأل القائد عمار.

«**وما هي قصة كاظم؟ وماذا يمكن أن يفعل هذا المزارع البسيط؟!**»، سأل الملازم حامد!

كان الفضول يملؤه، فهو يرى كاظم في موضع الاتهام، يعرفه.. فقد كان مُخلصاً في عمله، أحبه الأهالي ووثقوا به، كان متفانياً في خدمتهم، ولم يكن يُلحّ عليهم في تعجيل أجره، وها هو الآن يرسف في الأغلال!

التفتَ القائد عمّار إليه.. غير مستسيغٍ مزحَه الذي بدا غير ملائمٍ مع جدية الموقف: «**لقد استكملنا التحقيق معه، وننتظر رأي اللجنة الشرعية فيه!!**»

«**ولكن ما هي التهم الموجهة إليه؟**»

«**هذا ليس وقتاً مناسباً للمزاح يا حامد! لقد قبضنا عليه بناءً على رسالتك التي بعثتها إلى كريم!!**»، رد القائد عمار بضيق، ثم ناوله الرسالة!

«**رسالة! وأنا أرسلتها!!**»

شرع الملازم حامد في قراءة الرسالة التي كانت مذيلةً باسمه.. وعلامات الدهشة تعلو محياه!

«**عن أية رسالة تتحدث؟! أنا لم أرسل أي شيء!!**»، بدأ الجميع يتوافدون مبهوتين، أضاف الملازم: «**ثم يا أخي عمار.. انظر إلى هذه الرسالة، لقد كُتبتْ بطريقةٍ مباشرة، هل عهدتم منّي أن أكتب رسائلي من دون تشفير؟! وكذلك هل سبق لي أن كتبت اسمي صريحاً في نهايتها؟!**»

بُهت الجميع لفوات هذه النقطة عليهم، فتتالي الأحداث قد أخل بشيء من اتزانهم..

..، وبدأت الأمور تتعقد أكثر!

«**أنا لم أكتب هذه الرسالة أبداً، وليس لي أدنى معرفة بمصدرها، وهذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها تورط كاظم والبقية في القضية!**»

رد القائد عمار: «**لقد قبضنا عليه.. والعجيب أنه اعترف بكل ما نُسب إليه، إن الأمر محيّرٌ فعلاً!**»

قال الملازم حامد: «**لقد كنتُ أتأهب لإخباركم بأنني رأيت جاسم داخل القاعدة، معتقداً أنه هو الخائن، وهو بالفعل كذلك، لكنني أسمع الآن كلاماً آخر! بالإضافة إلى أنني وجدت رسالة على طاولتي تحذرني من أن العميد وليام عَلِم بشأن أميرة، وقد أرسل قوة خاصة لاعتقالها!**»

قال القائد عمار.. وعلامات الحيرة تحيط بالمكان: «**يبدو أننا أمام شبكةِ جاسوسيةٍ أكبر مما نتصوّر.. يتورط فيها خليطٌ من الوجهاء والبسطاء، ولكن.. لا بد أن نكون على حذر!**».

وفي نهاية ذلك اليوم الملتهب بالأحداث..

خرج التاجر جاسم الجابي من القاعدة على متن سيارة همرٍ أمريكية، وبحراسة خاصة، كانت الخطة التضليلية تنص على أنهم يتوجهون أولاً نحو نقطة التفتيش المركزية على حدود بغداد، ثم يترجل جاسم من الهمر بعد أن يتأكد من خلو المكان من أي عراقي.. ليتوجه بعدها نحو سيارته التي تم إخفاؤها في المواقف الخلفية للمركز، ثم يذهب جاسم لحال سبيله من دون أي اشتباه.

كان يحرص العميد وليام على تأمين حماية قصوى له، إذ إنه يمثل ورقة رابحة، كما إنه قد يستفيد من أمواله في يوم ما.. بعد أن تتوطد العلاقة بينهما بشكل أكبر.

لم يكن التاجر جاسم ليحصل على ثقة العميد وليام؛ لولا وفرة أمواله، إضافة إلى أنه يتمتع بحس استشاري راقٍ.. يستغله العميد وليام في التعرف على مواطن القوة والضعف لدى الشعب العراقي، عاش التاجر جاسم طرفاً من حياته في أمريكا، وتطبّع بثقافة ذلك المجتمع، تعرف على بعض المسؤولين هناك، وتوطدت علاقاته ببعضهم، لم يعد إلى العراق إلا بسبب موت والده المفاجئ، الذي خلّف له ثروة كبيرة، أصبحت في زمن الاحتلال.. تمثل خطراً على صاحبها، إلا أن تكون لديه حماية بشكلٍ كاف، وهذا الذي انتهجه التاجر جاسم.. فقد عزم على التقرب من المحتل بشتى الوسائل.. ليكون له ظهراً ضد أي اعتداء على ممتلكاته.. في ظل قانون الغاب الذي يُحكم به العراق!

استقل التاجر جاسم سيارته، وعاد قافلاً نحو داره في حي الحارثية، كان متعباً من جراء الضغط الشديد الذي تعرض له في الليلتين

السابقتين، فقد كانتا ملآنتين بالأحداث الساخنة، ملّ من استنشاق سجائره، جوفه يمتلئ بالدخان، ويحس بجوع شديد.. فهو لم يتناول الغداء بعد، توقف بجوار مطعم شعبي، وصادف ذلك وجود الخالة (ساجدة) بالقرب من المطعم، حياها بكلتا يديه، يحب روحها المرحة، ويكثر من زيارتها في دارها، فقد رأى فيها تواصيف الأمومة المفقودة بعد رحيل والدته، أقبل نحوها بانشراح، وحاول التلطف معها كعادته.. إلا أنه رأى منها صدوداً، حينما رمقته بنظرة قاسية.. لم يعتدها منها!

«**أصحيحٌ ما يقوله الناس عنك؟!**»، قالت بجفاء.

ابتلع ريقه بصعوبة.. غير متصوِّر لأبعاد القضية: «**وماذا يقولون يا خالتي؟!**»

«**هل أغروك بأموالهم؟! أم بحسناواتهم؟!**»، وضعتْ لثامها على وجهها معلنةً انفصال علاقتها به ثم قالت: «**المال! أظنك تملك الكثير منه! لكن لا بد أنك وقعتَ فريسةً لإحدى الشقراوات!**»

ردّ بدهشة: «**ومن أطلق هذه الشائعات؟! وماذا قالوا بالضبط يا خالتي؟!**»

«**أولاً أنا لم أعد خالتك بعد اليوم، فأنا لا أتشرف بمعرفة أحد الخونة، كنت أعتبرك أعز أبنائي من قبل، ولكني أتمنى الآن أنْ أراك مشنوقاً على أحد أعمدة الإنارة! لقد أكد لي ابني (قاسم) البارحة.. بأنه رآك أيها الخائن بصحبة أحد الأمريكان في سيارته العسكرية، وأنك كنت...**»

أحس بأن الأرض ضاقت عليه، وأن السماء تلفظه، تراءت له أعين الناس كأنها تتهمه بالعَمَالة، كل الأيدي تُشير نحوه: «**أنت مُذنب..**

أنت مذنب!!»، لم يصدق ما يحدث له، تذكر أطفاله، ربما لم يعد بمقدوره أن يراهم، فالسهام ستتسابق الآن إلى رقبته!

نسي أمر الخالة ساجدة، ولم يتنبه أنها ما زالت تُحادثه وتدعو عليه، أخرج هاتفه النقال، وبحث عن رقم العميد وليام، كانت يداه ترتعشان، أحس بالموت يدنو منه، أجرى محادثة مختصرة للغاية، وهبّ بأقصى سرعته عائداً إلى القاعدة الأمريكية.

١٨

توجه النقيب مرتضى بزهوٍ كبير نحو مكتب العميد وليام، كان يحمل بين يديه «الملف» الذي حصل عليه أثناء مداهمته منزلَ أميرة، قرأ أكثر محتوياته.. إلا أنه لم يفهمها! فهي تتحدث عن تقنية متطورة في التوجيه عن بعد، لكنْ لا يهمه ذلك.. فقد اعتقل العقل المدبر.. والذي يتمثل في أميرة.. وهذا يكفي.

هي من المرات القلائل التي يتجرأ فيها على الذهاب لمكتب العميد من دون موعدٍ مسبق، فقد صار مَرضياً عنه، وتغيرت اللهجة التي يخاطبه بها العميد، كما إنه قد وعده بالترقية، وتحسين وضعه المادي، ووعده كذلك في حال استمرار نجاحاته بأنه سيوليه منصباً مهماً في الجيش العراقي.

«**سيدي.. لقد استطعنا الحصول على كنز عظيم**»، قالها بفخر، ووضع الملف على طاولته، ثم أردف: «**لقد قضينا عليهم، فهذا الملف هو أهم موسوعةٍ يرجعون إليها**».

قام العميد وليام من مكتبه، وصافحه بحرارة: «**إنني فخورٌ بك.. فقد أثبتَّ صدق حدسي فيك منذ أول يوم رأيتك فيه**».

«**سيدي.. هذه شهادة أعتز بها**». ووضع يده على صدره.

«**يحق لي بأن أطمئن على سير العمل الآن.. فقد تخطّينا أكبر عقبةٍ أمامنا، وأثبتنا للجميع جدارة وكفاءة قواتنا المشتركة**».

كان العميد يرتشف القهوة ببطء، ويحادثه بثقة مطلقة: «**بقي أمامنا مهمة فرعية.. وهي أن نسحق بقية الحثالة الذين لهم علاقة بها**».

طَرق السكرتير الباب معلناً قدومَ خبراء الكشف عن الذبذبات اللاسلكية..

ثلاثة أشخاص.. يلبسون زياً موحداً، قدِموا مباشرةً من الولايات المتحدة الأمريكية، تم التعاقد معهم بشكل خاص لحل هذه الأزمة، ويحملون معهم نموذجاً لجهاز رصد الذبذبات الجديد، حيث إن الأجهزة الموجودة بحوزة القوات الأمريكية لم تعد قادرة على اكتشاف بعض الذبذبات المتطورة، ضحك العميد وليام، وقال: «**أظن أننا لم نعد بحاجةٍ إليكم، فقد تكفلنا بالمهمة بأنفسنا!**»، ثم نظر إلى النقيب مرتضى بابتسامة ساخرة، إلا أنه استدرك قائلاً: «**بما أنكم قطعتم كل هذه المسافة من أجلنا.. فلا مانع لديّ بأن تقدِّموا عرضاً موجزاً عن هذا الجهاز العجيب!**»

أحس الفريق بالإهانة، فقد بذلوا جهداً كبيراً من أجل تطوير برمجةِ هذا الجهاز في وقت قياسي، وها هم الآن يتعرضون للسخرية، تشاوروا فيما بينهم، كان رئيس الفريق مُصرّاً على الانسحاب ومن ثم تقديم شكوى للجهات المسؤولة، إلا أنهم قرروا في النهاية أن يقدموا العرض بشكل مختصر حتى لا يكون ذلك إدانةً عليهم في حالة رفضهم طلب العميد.

بدأ رئيس الفريق المهندس كولين وهو من شركة «تيليكوم تاكنيكال بلس» الرائدة في صناعة البرمجيات على مستوى العالم.. بدأ في تقديم عرضٍ موجز عن مميزات هذا الجهاز، وطريقة تشغيله، كان يتحدث بتضايق واضح، بوابةُ الستين التي ولجَ منها لم تعد قادرةً على تحمُّل الإساءات، وخصوصاً إذا صدرت من مسؤول رفيع المستوى!

بدا العميد غير مبالٍ بحديثه، حيث كان يقرأ بعض الأوراق التي بين يديه، وقام بالرد على مكالمةٍ وردته من مترجمته العراقية. . كان يُجيد فنَّ التهميش بجدارة، يعيش في عالمٍ من العظمة بكُلِّيته، يرى مَن حوله أصفاراً لا قيمة لها!

استغرق المهندس كولين قرابة خمس دقائق حتى فرغ من عرضه الموجز، ثم وصل إلى المرحلة الأخيرة التي سيقوم فيها بتجربةِ تشغيل الجهاز أمامهم.

قام بضغط زر التشغيل. . فأضاءت شاشة التحكم، كانت تبدو متطورة بشكل مُذهل، نظر إليها العميد وهو يخفي إعجابه بتقنيتها، وشرع المهندس في توصيف أجزائها.

«إذا تم كشف أي دائرة إلكترونية متصلة في مدار هذا الجهاز.. الذي يمتدّ لأكثر من ٣٠٠٠ متر.. فإنه يقوم بالتنبيه بشكل آلي، ومن ثم يحدد إحداثياتها بدقة»، أخرج دائرة إلكترونية من جيبه. . وقام بتفعيلها، ثم دوّى على الفور صوت صرير مزعج، كان الجهاز باستطاعته تحديد مكان الدائرة بالضبط، وذلك بواسطة إرسال ذبذبات معترضة تتمكن من معرفة الإحداثيات بدقة متناهية.

كان المهندس مسروراً وهو يلحظ أنه استولى على انتباه الجميع: **«وإذا قمنا بتعطيل عمل الدائرة..»**، ضغط بإصبعه على قاعدة الشريحة لأجل تعطيل عمل دائرتها بشكل مؤقت: **«فإن صوت الإنذار سيخبو مباشرة»**.

إلا أن الصوت ما زال يصدر صريراً مزعجاً من دون توقف!!

تعجب المهندس كولين من ذلك، وقام بضغطها مرة ثانية، إلا أن الصوت لم يتوقف!

قامَ بتفتيش جيوب معطفه علّه يجد فيها شريحةَ اختبارٍ ما زالت مُفَّعلة، كان مرتبكاً بعض الشيء.. وسط ابتسامات العميد الشامتة!

أمر رفيقيه بأن يتأكدَا من وجود أي شريحة مفعلة بحوزتهما!

«**أمرٌ بسيط.. نأسف لذلك**»، قال المهندس موجهاً حديثه للعميد، ثم نظر إلى شاشة الجهاز، ولم يكن يصدّق ما تبصره عيناه!

..، صرخ من الفزع، واحتبستْ الأنفاس في جوفه، قال بصوت ممزوج برائحة الموت: «**٣٠ ثانية.. نحن في نطاق تفجير قريب!!**».

لم يستطع الجميع استيعاب ما كان يقوله، فقد كانت كلماته غير مُنسقة، وغير مفهومة.

صرخ بأعلى صوته: «**صاروخ! انفجار! ٢٥ ثانية فقط!!**»

ما زال صوت التنبيه ينبعث بقوة من الجهاز، مُحدثاً حالةً من الفزع والحيرة في مكتب العميد، قام المهندس بحمل الجهاز بشكل سريع ليحدد موضع الشريحة التي تنبعث منها الموجات، كان الجهاز يشير إلى أنها تبعد قرابة ثلاثة أمتار فقط!

بادر بتوجيه الكاشف اليدوي بسرعة في أرجاء المكتب، ثم إلى صاحبيه.. لا شيء!

وجّهه نحو طاولة العميد.. كان الصوت يرتفع!

اقترب أكثر.. الصوت يزداد!

«**المكان يُستهدف الآن.. اخرجوا.. اخرجوا جميعاً!!**»

عمت الفوضى أرجاء المكان، قام العميد من مكانه، أخذ الكاشف من يديه، وقام بمسحٍ سريع على طاولته.. الصوت يزداد بشكل

كبير، وضع الكاشف على النقطة التي تمثل ذروة الصوت المنبعث، أراد أن يحدد المكان بالضبط . .

«**إنه ينبعث من هذا الملف ! !**»، قال المهندس: «**يبدو أنه مزروع بشريحة إلكترونية ! !**».

هاج المهندس كولين، وكاد يفقد صوابه: «**ثوانٍ معدودة وينفجر المكان !.. اقذف هذا الملف خارجاً.. اقذفه الآن !**»

صاح العميد وليام بأعلى صوته، ثارت جميع حواسه. . حباً في فتات الحياة، قفز نحو الملف، واحتضنه بيديه، توجه بشكل هستيري نحو النافذة، كان يهذي بحديثٍ غير مفهوم، وقام بقذف الملف بكل ما أوتيه من قوة!

كان مكتبه في الطابق الثاني. . تأمل الملف وهو يتهاوى. . حتى وقع على الأرض!

نظر إلى الخلف، كان الجميع يُحدّقون فيه مبهوتين، لا يعقلون شيئاً مما يحدث!

. . ، لحظات . .

ثم سمع الجميع دويّ انفجارات عنيفة!

١٩

دخل النقيب مرتضى على أميرة في سجنها الانفرادي، كان مهتاجاً لأقصى حد، فقد هَدمتْ هذه الفتاة كل ما بناه، واغتالتْ فرحة انتصاره الذي لم يدم طويلاً، مستقبله يمر الآن بمحكٍ خطير، ولا بد من إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

صرخ في وجهها بقوة: «**لا أريد أي مراوغات، أخبريني القصة كاملة، من هو الذي وضع الشريحة في الملف، ومن هو الذي قام بإطلاق الصواريخ؟!**»، كان يحمل بين يديه حبلاً غليظاً يستخدمه في التحقيق، ويُصلي به ظهر كل من يعصيه!

«...»

«**عليكِ لعنة الله.. تحدثي.. أخبريني!!**»

أصبح في حالة لا يستطيع بعدها لملمةَ حقده المتناثر، كلُّ ملامحه تحكي معاني القسوة والتسلط، اقترب منها، كانت محصورةً في زاوية السجن، ما بيدها حيلة، حاول لمسها، كانت تتراجع للخلف، الجدران تَحصُرها وتُدنيها من الغريب، وضع يده على كتفها، صرختْ بأعلى صوتها، تنادي.. وتندب.. وقد ضاع صدى صرخاتها في عُمق الظلام!

كانت تستخدم يديها وقدميها في دفعه وإبعاده، ما زال يصر على الاقتراب منها: «**أخبريني أيتها الفاجرة.. أخبريني وإلا (..)!**»

صرخاتها تتوالى، ونداءات الاستغاثة تعلو، خاف النقيب من أن يلفت ذلك انتباه البقية في الخارج، خصوصاً أنه لم يأخذ الإذن من العميد باغتصابها، فقرر التراجع، وتجربة أسلوبٍ آخر في الضغط عليها!

«**إذا لم تخبريني.. فسأعتقل كريم، لا بد أن له علاقة مباشرة في الأمر، فقط إشارة مني.. ويكون رهن الاعتقال**»، كان يعلم أنه يكذب، فهو لم يستطع القبض عليه منذ مدة، وما زال رجاله يبحثون عنه!

لاحظ علامات الخوف عليها عندما هددها بكريم، لا بد أنها تحبه بجنون، لقد وضع يده على نقطة ضعفها، قال بخبث: «**سأعتقله.. وسأهينك أمامه، وربما (..) على مرأى ومسمع منه!!**»، قالها ضاحكاً، ثم أردف: «**وسأعتقل جميع شُبان حي الحارثية، وستكونين أنتِ السبب**»

«**ولكنك لن تجد الفاعل بينهم!**»، ردت أميرة.

استبشر خيراً حينما بدأت تتحدث، وتتجاوب مع استفزازه، يمتلك خبرةً في استدراج المعتقلين في الحديث، حتى يوقعهم في شِراكه!

قال بكبرياء: «**ولماذا لن أجده؟! فجميع القوات تحت رهن إشارتي!!**»

«**لأنني أنا التي قمتُ بإرسال الرسالة لنفسي! وقمت بزراعة الشريحة في الملف!**»

ظهرتْ علامات عدم التصديق عليه، فأردفتْ: «**انظر إلى الخط المكتوب به.. وقارنه بخطي، ثم انظر إلى عنوان المرسل.. هل يوجد في العراق مدينة باسم الجديعة؟!**»

أُسقط في يديه وهو يسمع هذا الكلام، قارَنَ خط الرسالة ببعض

أوراقها التي صادرها من غرفتها، وبالفعل.. يتطابق الخطان!

تخيلَ على الفور صرخات العميد وليام عندما يَبلغه الخبر، ربما سيقتله، أو على الأقل سيطرده من القاعدة، شعر بأنه وقع في خطأ كبير بوثوقه بها أول مرة، لا بد أن يكون أكثر حذراً، وأشد حزماً!

«لقد توقعتُ أنني مراقبة، لذلك فقد قمتُ بزراعة شريحة في الملف حتى أفجره حال وقوعه بأيديكم!»، كان حديثها يأخذ طابع التحدي، إلا أنها في قرارة نفسها تتمنى أن تنطلي عليه خدعتها، تمنت ألا يسألها عن المكان الذي قامت بتطوير صناعة الشرائح فيه، ولا عن مصدر إطلاق الصواريخ!

«وكذلك يوجد شريحة أخرى قمت بزراعتها في مكان ما!»، قالت أميرة، وهي تعلم بخلاف ذلك، إلا أنها أرادت أن تزيد من حيرته وتردده، فقد استوحتْ أنه من ذلك الصنف الذي يخاف كثيراً من سُلطة الآخرين، حيث لاحظت احمرار وجهه في أكثر من موضع، كما إن أسلوبه التهديدي قد هدأ قليلاً.

لم يعد يعلم ماذا يفعل، فقد استجدَّت أحداث مهمة، قرر الذهاب إلى العميد وليام، وإخباره بكل هذه التفاصيل، ولْيحدث ما يحدث، فقد أقنع نفسه بأن ذلك أسلم طريق يمكن أن يسلكه!

دخل على العميد في مكتبه، امتقع لونه حينما سمع صراخه وهو يتحدث في الهاتف، كان يتلفظ بكلمات بذيئة من غير حرج، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه في ذلك.

وضع سماعة الهاتف في غضب، وبقي صامتاً لعدة لحظات، لم يعد يستطع تحمل كل ما يحدث، فقد تعرضت حياته لتهديدٍ مباشر، إضافة إلى أن قائد القاعدة عاتبه كثيراً على تقصيره في ما حدث.

«لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يهدّدني، هذا غير معقول.. غير معقول!»، كان يضرب الطاولة بيده، ويكيل السباب والشتائم لكل أحد، رغبة الانتقام تشتعل في دواخله، الحقد القديم يندفع بكل قوة، لم يعد يستطيع كبح جماح نفسه، وجّهَ نحو النقيب نظرة قاسية، حملتْ الرعب إلى قلبه: **«ماذا تريد أيها الغبي؟! إنني أشك أحياناً في أهليتك لأن تكون ضابطاً.. لم أعد أثق في أي شيء تقوله!!»**

كان النقيب مرتضى لا يزال مُنتصباً في مكانه، يستقبل الإهانات منكّساً رأسه، تعلَّم ألا يجادله في شيء، أو حتى يتحدث معه في مثل هذه الأوضاع، عليه أن يتحمل كل ما يقوله عدة دقائق.. ثم سيهدأ تلقائياً!

«لقد أوهمتَني أننا قضينا عليهم، وهذا ما لم يحدث أبداً، فكيف تفسر لي أيها الغبي إطلاقهم للصواريخ؟! وتوقيتهم ذلك بوجودها في مكتبي؟!»

وضع يديه على وجهه، وأمارات الأرق بادية عليه، فلم يستطع النوم في الليلة الماضية من الفزع، غير مصدق أنه نجا من الموت بأعجوبه!

«لستُ أعلم ما هي الفائدة منك؟! فهذه هي المرة الثانية التي تقع في خطأ فادح! لقد كدتَ تقتلني بيدك! لم أرَ في حياتي أخرقَ مثلك! اسمع.. وافهم ما أقوله جيداً.. لا أريد أية أخطاء.. وإلا فسوف تكون أنت الضحية، وأظن أنك تعرفني جيداً!»، وأشار إلى رقبته.

بالكاد استطاع النقيب مرتضى أن يبتلع ريقه، جاهد ألا يصدر منه أي صوت أثناء ذلك، فهو يُوقن بأنه يعني ما يقول، وأن القتل عنده شيءٌ سهل للغاية، ويمكن أن يُضحي به في سبيل استرداد كرامته!

«**تكلم.. ماذا تريد؟!**»

«**لدي أخبار جديدة بخصوص أميرة!**»، قال النقيب مرتضى بتردد، وأخبره بما دار بينهما، وبِلُغةِ التحدي التي تُظهرها، وأنها هي التي كانت وراء عملية التفجير الأخيرة.. بزرعها الشريحة في الملف!

...، ولم يكمل حديثه حتى ثارت ثائرة العميد، وبدأ في الصراخ بشكل هستيري، لقد وصل إلى مرحلة كاد ينسى فيها عقله، فَقَدْ شعر بأن كرامةَ قواته قد أُهينت، وعُرِّضت للسخرية!

«**لن أسمح لأحد بأن يدنس شرف قواتنا المسلّحة.. سأقتل هذه الفاجرة، سأقتلها بيدي!**»، قام من كرسيه وكان يقول: «**سأنتقم! سأنتقم!**».

«**سيدي.. أرجو ألا تفعل ذلك!**»، رد النقيب مرتضى.

تعجب من جرأته، ووقاحته، فلم يعتدْ أن يعارضه أي أحد: «**اخرس أيها الحقير.. أنا الذي يُصدر الأوامر، وأنت مَن ينفذ مِن دون نقاش!**»، اقترب منه وعيناه تنطقان شراً: «**ثم هل وقعتَ في هواها لتدافع عنها؟! هل كنت تعاشرها ليلاً فأردت ألا تفقدها.. أيها السافل؟!**»

«**سيدي.. أنا رهن إشارتك إن أردت قتلها، سأقتلها بيدي هاتين، ولكنكَ إن فعلتَ ذلك فستصنع منها بطلةً أسطورية، ستجعل كل الشعراء يتغنون بمآثرها، سيزفها الشعب إلى قبرها، وستكون زفة مشهودة!**»

هدأ العميد قليلاً، وهزّ رأسه في إشارة للسماح له بمواصلة حديثه..

«**إضافةً إلى أنها تُمثل ورقةً رابحةً لنا.. ولن يتخلى الأتباعُ عنها،**

وسيحاولون جاهدين تخليصها من الأسر، خصوصاً وأن زوجها متورط معها، وبالتالي سيقعون ضحيةً سهلةً في أيدينا»

كان العميد يبدو مقتنعاً نوعاً ما بوجهة نظره، فقد كفّ عن الصراخ، وزالت حالة التشنج التي اعترته، وبدأ يتأمل في حديث النقيب مرتضى بشكل أكثر تركيزاً، فبالرغم من أنه عزم على عدم سماع مشورته أبداً. . إلا أن حديثه الآن. . يتسم بنوع من المنطقية: «**هل هي إفاقة مجنون؟!**»، حدّث العميد نفسه.

«**سيدي.. أنا عراقي.. وأعرف أبناء بلدي جيداً، وأعرف كذلك من أين تؤكل الكتف.. أريدك فقط أن تُجدد ثقتك فيّ، ولن تندم أبداً، اعتبرها فرصتي الأخيرة**»

اقترب النقيب مرتضى منه وأخبره بفكرته بشكل تفصيلي، ثم قال وابتسامةُ الخُبث تعلو محيّاه: «**هناك قاعدة ذهبية تقول.. اغتصبوا نساءهم.. تقضوا على رجالهم!**»

٢٠

اجتمع القائد عمار والبقية في قبو المزرعة مرةً أخرى، خُصص هذا اللقاء من أجل إيجاد طريقة مناسبة لتخليص أميرة، تحلّق الجميع حول القائد عمار، كان دوماً يحرص على تذكيرهم بالهدف الأكبر الذي يطمحون إليه، والذي يتمثل في طرد المحتل من ديارهم، وإقامة العدل في أرض الله وِفقَ ما شرع.. حتى لا ينسوا ذلك في غمرة انشغالهم ببعض التفاصيل الفرعية.

«**أظن أننا سنستبعد فكرة اقتحام القاعدة، فقد تُكلِّفنا الكثير، إضافة إلى أن أميرة لن تكون في مأمنٍ إذا ما كان هجومنا عُنوة، فربما يبادر أحدهم بقتلها قبل أن نستطيعَ الوصول إليها!**»، قال القائد عمار، ثم طلب المشورة من الجميع.

كان كريم يتابع ما يجري بصمت.. راغباً في أن يتخذ المجاهدون رأيهم من دون تأثير من طرفه.. لأنه يعلم أنهم سيُعرّضون أنفسهم لخطر عظيم، فمجرد الدخول للقاعدة يمثل مجازفة كبيرة!

قال أحمد، وقد كان أحدثهم سناً: «**ما رأيكم بفكرة التسلل ليلاً للقاعدة، بحيث يُؤمِّن لنا حامد كل ما نحتاجه؟**»

بدت الفكرة منطقية نسبياً، حيث هز القائد عمار رأسه موافقاً، ثم قال: «**ما رأيك يا حامد؟**»

تعوَّدَ الملازم حامد أن يتريث قبل أن يُصدر حكمه على أي شيء،

كان يَزن الأمور بدقة، ويدرسها من الجوانب كافة، قال: «**إن فكرةَ التسلل قد تكون فعّالة.. ولكنها لا تخلو من خطر كبير، فكاميرات المراقبة تنتشر في كل مكان، كما إنهم يملكون أجهزة متطورة بحيث يمكنها كشف أي حركة بجوار أسوار القاعدة بشكل آلي!**»، وضع يده على خدّه، وبدا مستغرقاً في تفكير عميق، ثم قال: «**لديّ فكرة.. على أنها لم تختمر كثيراً في ذهني.. إلا أنني سأطرحها عليكم**»

اعتدل الملازم حامد في جلسته، وتأهب لطرح فكرته: «**تعتمد هذه الفكرة على أسلوب الخداع والتضليل، حيث ستكون المجموعة الأولى مجتمعة في مكان ما، ثم أقوم بالوشاية بها، وإبلاغ العميد وليام بأن لها صلة مباشرة بأميرة، بعدها سيُحرِّكون القوات لاعتقالها.. ويجب ألا يجدوا أيةَ مقاومة، وبعد الزج بها في السجون..**»، غالبته ابتسامةٌ ضاحكة، فهو يعلم ما سيلاقونه من الويلات في هذه المرحلة: «**يأتي دوري أخيراً بأن أُخلّص هذه المجموعة.. ثم نتوجه جميعاً لتهريب أميرة**».

قال أحمد مؤيداً: «**وستقوم أنت بتوفير السلاح لنا من داخل القاعدة؟**»

«**نعم.. هذه مهمة سهلة**»

قال القائد عمار: «**ولكن.. السؤال الأهم.. كيف ستتمكن من تهريب أميرة، ومن ثم الخروج بها من دون إثارة انتباههم؟**».

رد الملازم حامد: «**نعم.. هذا هو بيت القصيد.. لدينا عدة خيارات.. فمثلاً أستطيع توفير شاحنةٍ تحتوي على عدة توابيت، يختبئ الجميع بداخلها، ويمكننا تجاوز البوابة الأولى حيث لا يوجد بها تفتيش دقيق، أما البوابة الثانية.. فقد تسبب لنا بعض المتاعب، ولكن..**»،

ألقى الملازم حامد بنظرة على أعين الجميع التي كانت متعطشةً للثأر من المحتل، ثم واصل: «**ولكن يمكننا أن نستخدم القوة هنا، حيث سنفتح عليهم النار من الداخل.. في حال طلبهم التفتيش، وكذلك يمكننا إشغالهم من الخارج بقوة مساندة**».

فكّر الملازم حامد لحظة، ثم قال: «**ويمكنني كذلك زراعة عدة شرائح بجوار البوابة، أو في أي مكان آخر، وبعد تفجيرها بالصواريخ.. يمكننا تهريب الشاحنة للخارج**»

«**وهذا يعني أنك لن تعود مجدداً للعمل في القاعدة؟**»، رد كريم.

«**نعم.. هذا صحيح !**».

٢١

لم تعد أميرة تحتمل الإهانات التي تتعرض لها، كانت تدعو من كل قلبها أن تنجح خطة المجاهدين لتهريبها من دون أي متاعب، أخبرها الملازم حامد بالتفاصيل، حاولت قبل ذلك أن تجد مَهرباً من سجنها، تمنتْ أن ينسى السجّانُ المفاتيحَ على باب الزنزانة، أو أن يَغفل عن إغلاق الباب خلفه، تمنت لو أنها في كابوس مزعج.. فتفتح عينيها على ابتسامة أختها فاطمة، كانت تتمنى، وما لها إلا الأمنيات، تحيا بها، وعليها تعيش!

تسمع ليلاً صرخات المساجين، بعضهم يصيح من ألم التعذيب، وبعضهم يبكي من حرقة الظلم المرير، تُفزعها هذه الصرخات، وتنذرها بليل بائسٍ طويل!

أطلقتْ أميرة تنهيدة عميقة.. تعلم أنها وقعت في قبضة قوم لا يعرفون معنى الرحمة، ولا يرأفون بحال الضعيف المستكين! جالَتْ بناظريها في جنبات السجن، قضبانه.. كانت جامدة من كل إحساس، لا حراك، ولا مشاعر! هل يا ترى اعتادت على رؤية البؤساء يجيئون ويروحون، فتجردت من كل عاطفة؟!

اهتزّ قلب أميرة خوفاً.. وهي تسمع نبحَ كلابٍ يقترب من زنزانتها، الساعة تُشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل.. فمن يكون القادم الآن؟!

وقْعُ الأقدام يقترب، والضحكات تُنْبئ عن مجونٍ مُتكشِّف، توجستْ من ذلك كثيراً، فقدومهم في مثل هذا الوقت لا يبشر بخير: «**يارب.. لطفك**»، قامت من مرقدها، واتجهت بسرعة نحو الزاوية، لا حول لها ولا قوة، أَلصقتْ ظهرها في ملتقى الجدارين، وتغطت بقطعة القماش، احتوتْ وجهها بكفيها، منتظرةً أسرار الغيب تتهاوى عليها!

إنها تعي صوته جيداً، فوقْعُه الخشن ما زال يتردد في أذنيها.. إنه العميد وليام.. ولا أحد سواه!

شعرتْ بأن كل ذرة من جسدها ترتجف، خافت على نفسها، وخافت كذلك بأن تضطر إلى الاعتراف بمعلومات حساسة عن المجاهدين، ربما تكلفهم الكثير، إلا أنها اتفقتْ احتياطاً مع الملازم حامد أن تُخبره بما تعترف به قسراً.. ليقوم بتحذير المجاهدين بشكل مباشر.

فَتح النقيب مرتضى باب زنزانتها، ومن خلفه كان العميد وليام، وجنديان آخران يقودان ثلاثة كلاب بوليسية.. يُجاهدان لضبطها خشيةَ أن تنطلق على أميرة!

دخلوا جميعاً زنزانتها.. يجمعهم رغبة جامحة في الانتقام، والأخذ بالثأر، فقد سببتْ لهم أميرة كثيراً من المتاعب، ولا بد من وضع حد فاصل لذلك.

وصل ذعر أميرة إلى أقصى حدوده، أربعة غرباء يحيطون بها، مدججين بالسلاح والخسة، وكلابهم تنبح لتفترسها: «**كيف كانت إقامتك يا أميرة؟! وهل راقت لكِ الضيافة الغربية؟!**»، قال العميد وليام، وسط ضحكات البقية، ثم أردف: «**لقد بلغني أنكِ كنتِ عصيةً على جنودي في التحقيق، ولم تتعاوني معهم بشكل كافٍ!**»

بدأ حديثه يأخذ طابع الجدية، ويتحول إلى لغة آمرة تسلطية: «**لقد حذرتكِ من هذا السلوك بطريقة واضحة، ويبدو أنك لا تستوعبين ما أقوله بشكل كامل!**»

كانت أميرة لا تزال تدسّ وجهها بين يديها، وتتمنى أن تنقضي هذه الساعات سريعاً، لم تستطع أن تتفوه بكلمة، وماذا عساها أن تقول؟!

«**أخبريني الآن.. من هو الذي قام بإطلاق الصواريخ؟**»، قال العميد وليام.

«...»

«**ومن هو الذي قام بمساعدتك في صنع الشرائح؟ وأين؟**»

«...»

اقترب النقيب مرتضى منها، سحب منها الغطاء بعنف، ثم ركلها بقدمه، كان يصرخ في وجهها: «**تحدثي أيتها الفاجرة! أجيبي عن أسئلتنا!**»، ثم شد شعرها بيُسراه.. وقام بسحبها إلى وسط الزنزانة!

تحاملتْ أميرة على نفسها، وحاولتْ أن تكتم صرخة في جوفها، تُحس بأنها تنهار، وتفقد اتزانها، تلقّتْ ركلة مباشرة على وجهها من إحدى الأقدام، أحست بالحرارة تسري في كل أطرافها، كل شيء يتصاغر في عينها، ترى الحيطان ترقبها بشماتة.. والسقف.. وكل الأشياء!

نظرتْ إلى النقيب مرتضى وهو يكيل لها الشتائم، ما كانت تعقل كثيراً مما يقول، إلا أنها لاحظتْ أنه يحمل «كاميرا» ويتأهب للتصوير، فزعتْ، وتوالت الهواجس عليها: «**لماذا الكاميرا؟! ولماذا يحملها الآن بالذات؟!**».

بصق العميد وليام عليها، وركلها بكل قوة: «**عليك اللعنة أيتها العاهرة!**»، ثم أمر الجنديين بإطلاق الكلاب عليها، فتدافعت على الفور بكل شراسة، كانت تنبح بصوت مفزع، وتنهش من ملابسها.. محاولةً سحبها في كل اتجاه، كانت أميرة تدفعها بأنوثتها الضعيفة، وتسعى لستر ما تمزق من ملابسها، بدأت في البكاء، وإطلاق نداءات الاستغاثة، كان نشيجها يتوسل بأن يبعدوا هذه الكلاب عنها، وأن يرحموا ضعفها!

مزقت الكلاب جزءاً كبيراً من ملابسها، ونهشتها في مواضع عديدة من جسدها، بدأت قوى أميرة تخور، وتتناقص تدريجياً..

أَمَرَ العميد بإبعاد الكلاب عنها حتى لا تقتلها، فهو لا يرغب أن تكون نهايتها بهذه السرعة!

كانت حالتها مزرية، فدماؤها بدأت تسيل من عدة أجزاء من جسدها، وموطن عفّتها بدأ في التكشف، وهي لا تكاد تعي ما يحدث لها، اقترب منها النقيب مرتضى محاولاً مُراودتها عن نفسها بشكل ساخر، فأبدتْ مقاومةً شرسة له، ودفعته بقدميها، صارخةً في وجهه بكل ما أوتيت من قوة، فثارت ثائرته، تناول سوطه البلاستيكي.. وأوقع ضرباته على جميع ما يظهر من جسدها، وهي تتلوى، وتصرخ من الألم!

كانت مُتكورةً على نفسها، تحاول لملمةَ ما تناثر من حيائها.. حتى سمعت النقيب مرتضى يقول: «**سأبدأ في التصوير الآن!**»، اقترب العميد منها.. بعد أن لبس قناعاً أسود، وبدأ في هتك ملابسها، وكلما أبدتْ مقاومةً ركلها بقدميه، حتى خارت قواها وما عادت تستطيع المقاومة، كانت تعي ماذا يريد أن يُفعل بها، توسلت بألا يَفعل، بكتْ، صرختْ، نادت مرتضى باسم العروبة.. والشرف

الأصيل، استجدتْه أواصر الإنسانية.. والعهد القديم، استعطفت قلبه الذي بين جنبيه، ترجّته بكل شيء ألا يمسّوها بسوء، تمنت عليه أن يقتلها بدلاً من ذلك، كان صوتها يعتلّ، ويستحيل رفاتاً!

مرَ بها شتاء حياتها..

وأخبرها بالشقاء..

كان وقع خبره قاسياً.. بكى معها.. وأبكاها!

..، فعل العميد فعلته التي تأنفها كل الفطر السوية!

تعاقب عليها الباقون.. وَأَدُوا حياءها الذي طالما عاشت لتصونه، وجاهدت لتحمي حِماه!

أُغمي عليها، وما عادت تحسّ بأي شيء!

تردد في الأرجاء نداءات العفيفة الأولى: ﴿**يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً**﴾، كانوا يضحكون بملء أفواههم، ولا يدرون بأنهم داسوا وردةً ما لُمست من قبل، وما شمّها أحد قط!

وردةٌ طاهرة.. عفيفة، سحقتها يد الأسى بكل خِسّة، فتناثر كبرياؤها في كل مكان!

قال العميد وليام وهو يهمّ بالخروج: «**لا أجمل من أن أعُبَّ كأسَ خمرٍ الآن.. ثم أخلد لنوم عميق**»، ألقى نظرة أخيرة على بقايا أميرة، كانت جامدة بلا حراك، قال وقد شفى غليله تجاهها: «**أنتم مثل البهائم.. خلقتم لنتمتع بكم!**»

رآها الملازم حامد بعدَ عدةِ ساعات.. على هيئتها تلك!

خلع رداءه.. وسترها، ودمعاته تكاد تفضحه، لم يستطع كبح جماحها هذه المرة!

حاول أن يُواسيها.. أن يُصبِّرها.. أن يقول أي شيء لها.. ولكن ماذا عساه أن يقول؟! فقد ضاعت لغة الكلام، فأطبق الصمت بينهما!

طلبت منه ورقةً وقلماً.. أعطاها، ولم يسألها لماذا!

خرج من عندها، ولم يُطق البقاء.. توجه صوب مكتبه..

..، وهو لا يعلم أنه أوقع نفسه في خطأ كبير!

٢٢

أكمل الملازم حامد جميع الإعدادات لتنفيذ عملية التهريب، فقد وضع الأسلحة اللازمة في مأمن، وقام بتجهيز التوابيت في السيارة، ثم ذهب إلى مكتبه مُنهكاً.. يُدافع فكرةً كانت تغمره، وتُلحُّ عليه بأن ينتقم لأميرة من الجناة، فلا أقسى من العجز أمام نُصرة امرأة تهان في شرفها، لم تعد تهمه حياته بشكل كبير، إلا أنه فكر ملياً في عواقب ذلك على القائد عمار والبقية، فقد قامت وِحدةٌ أمريكية عراقية بالتوجه نحو المنزل الذي يجتمعون فيه.. ليتم اعتقالهم كما خُطط له، وسيُفشِل كل الخطة إنْ هو تهور، قرر التريث لحين قدومهم، فسيشفي غليله حينئذ!

وبالرغم من ذلك.. فقد كان في حالةٍ لا تسمح له بالاستقرار، أحس بأنه يخون ضعفَ أميرة، وأنينها الذي لا ينقطع، خشي أن يُفتضح أمره.. فملامحه تبدو شاحبة، والارتباك يظهر عليه بشكل واضح.. ليلةٌ واحدةٌ تفصله عن الخَلاص!

خرج من مكتبه مُيمّماً صوبَ **السجن النسائي**، ليقوم بجولة أخيرة قبل قدوم الصباح، **إلا أنه لم يتنبه إلى التغييرات الذي حدثت في مكتبه، ولا إلى الشخص الذي كان يتتبعه، فحالته المزاجية لم تسمح له بملاحظة كل ذلك!**

كان يتكلف إظهار روح البهجة لكل من لاقاه في طريقه، فقد كان محبوباً من الجميع، وصل إلى السجن النسائي، ألقى التحية على

أحد الجنود الأمريكان.. الذي بدا مبتهجاً لأقصى حد، قال بخبث: «**مرحباً حامد.. حتى أنت قَدِمتَ لحضور الحفلة؟**».

ابتسم الملازم حامد له، ثم قال: «**أنا لا أعلم عن أي حفلة تتحدث!**»

«**تفضل.. ستستمتع كثيراً بالداخل!**»، وغمز له بعينه.

لم يستوعب الملازم حامد كل ما يقوله، على أن الشكوك بدأت تَحتويه، دخل السجن النسائي، كان يسمع صرخات استغاثةٍ وألم، يعلوها أصوات تهديدٍ تمتزج بضحكات ماجنة!

تحسس سلاحه، أزال زر الأمان، واتجه نحو الصوت بسرعة، رأى ثلاثةَ جنود أمريكان يحاولون اغتصاب فتاة عراقية.. بمُباركةٍ من إحدى المجنّدات الأمريكيات!

أحس بأن الدماء تندفع بقوة إلى رأسه، لم يعد يحتمل، فَقَدَ كل صبره، ولم يعد يستطيع كبح جماحها.. هي المرة الثانية التي يحدث فيها اغتصاب في أقل من يوم، وأمام ناظريه هذه المرة!

اقترب منهم، كانوا في غفلة عنه، وجّه رشاشه نحوهم، ثم أطلق عليهم وابلاً من النيران، لم تكن هناك أي مقاومة، فأسلحتهم كانت بعيدة عنهم، أرْداهم جميعاً، وهو لا يعي ما يفعل!

اندفع مباشرة ليهرب، أَطلقتْ صفارات الإنذار صيحاتها، أيقن بأن أمره قد انكشف، وألا مجال للتراجع، كان قلبه ينبض بشدة، لم يخطط لكل ذلك، ولم يتوقع في يوم من الأيام أن يكون في مواجهة جيش بأكمله!

قرر بأن يقتل كل من يراه في طريقه، اتجه نحو بوابة الخروج، كان جندي الحراسة قادماً بفزع، أطلق عليه عدة رصاصات، فكر

بالالتفاف من خلف السجن ليلوذ بمكان آمن.. إلا أنه سمع وَقْعَ أقدامٍ قريبة، فغيّر اتجاهه سريعاً، ولم ينتبه للدّرج الذي أمامه، والذي جعله يتعثر فيه ويُخلّ من توازنه، سقط على الأرض، وسقط سلاحه معه، أصيب في وجهه بجرح بسيط، قام من عثرته سريعاً، وعيناه تزوغان في كل اتجاه، فكر بأن يذهب إلى مكتبه، إلا أنه سيكون مكشوفاً أمام الجنود القادمين نحوه!

«**غرفة النعوش! غرفة النعوش!**»، كأنّ هاتفاً ذكّره بهذه الغرفة، لديه ذكريات لا تنسى معها! كانت أقربَ ملجأ يمكن أن يختبئ فيه لحين هدوء العاصفة، وبعدها.. سيحكم الله ما يريد!

كان يرى الجنود يهرعون ناحية السجن النسائي في استنفار تام، تأكد بأن أحداً لم يره، كل الذين علموا بدخوله السجن قد أصبحوا في عداد الأموات، حمد الله كثيراً على نجاته من القتل بأعجوبة، وإلا لو تأخر عدة لحظات لكانت أشلاؤه ممزقة الآن!

امتقع لون وجهه، وسرتْ حرارةُ الفزع في جسده.. عندما تذكر بأنه.. فقد «سلاحه» أثناء سقوطه!

سيكون ذلك إدانة كبرى في حقه!

..، وبدأ يَشمُّ رائحة الموت بشكل أوضح!

٢٣

مرّت عدة ساعات على هذه الحادثة، لم يَبرح فيها الملازم حامد مكتبه، كان يتأهب للموت في كل لحظة، ينتظر قدومَ قوة خاصة لاعتقاله، سيدخلون عليه عُنوة، ثم يُقيدونه بشكل همجي، وتبدأ فصول التعذيب الطويلة التي لا تنتهي.. إلا بالموت!

تحسّر كثيراً على فقدان سلاحه، لا يريد أن يقع في الأسر، كان يفضِّل الموتَ على أن تُداس كرامته!

لم يُدرك فظاعة ما قام به إلا بعد فوات الأوان، فكيف سيكون بمقدوره تخليص رفاقه، ومن ثم تهريب أميرة؟!

تعجّب من مرور كل هذا الوقت ولم يَقصِد مكتبه أحد: «**هل بالفعل لم يتنبهوا لي؟! ولم يلاحظوا سلاحي الذي فقدته؟**»، سأل نفسه.

كان يضع يده على ذقنه.. مُستغرِقاً في أفكاره التي لا تنتهي، هل يهرب؟ أم يقوم بالمغامرة في سبيل فك أسر أصحابه؟ أم أنه يتوجب عليه أن ينتظر تساقط الأقدار عليه؟

أسئلةٌ كانت تُلحّ عليه، وتدفعه لتحديد الخطوة التالية، قرر بأن يُغامر.. ولْيكن ما يكون!

بحث في أرجاء مكتبه عن أداة حادة يمكن أن يحتمي بها، توجّه صوب الدولاب الذي اعتاد أن يضع فيه سلاحه، فربما يجد فيه

مُدية، أو قطعة حديدية.. أو أي شيء قد يفيد في مثل هذه الظروف الصعبة!

نظر إلى الأرفف نظرةً فاحصة، وقلبه يلهج بالأمنيات، ويتشبث بسرابها.. ركّز ناظريه على الرف العلوي!!

اتهم نفسه بالهوس.. والجنون.. لا يمكن حدوث مثل ذلك!!

كاد أن يسقط من هول المفاجأة!!

اعترته رغبة ملحة بالصراخ، فلم يعد يصدق كل ما يجري حوله!

..، فقد وجد «سلاحه» قابعاً في مكانه!

تأكد من رقمه.. الرقم نفسه!

«ما الذي يجري حولي! أنا متأكد أنه سقط مني أثناء هروبي!»

خاف على نفسه.. فلربما يفقد عقله بشكل كامل، أخذ سلاحه، تحسسه بيده، آثار استخدامه حديثاً تظهر عليه، بالفعل.. إنه سلاحه من دون شك، ولم يكن يحلم أبداً!

فتّشَ في كل أرجاء مكتبه.. بحثاً عن مفاجآت محتملة، عن شخص يتجسس عليه، عن أداة مخبأة فيه.. لم يعد يثق في أي شيء!

قرر أن يضع حداً فاصلاً لأوجاعه التي تتوالى عليه، تقلّد رشاشه، وخرج من مكتبه، كان مستعداً للمواجهة إذا لزم الأمر، ومتأهباً لمجابهة الأعين التي قد تتهمه بالذنب!

تعجب!

كل النظرات كانت تُبادله الود، ولا ينكر من أمرها شيئاً!

عاد الهدوء للقاعدة، وانشغل الجميع بأعمالهم المعتادة، تذكر رفقته، القائد عمار والبقية، خاف عليهم من سياط المحتل، ومن جحيم اليوم الأول.. فهم يعمدون لإرهاب المعتقَل منذ اللحظات الأولى لاعتقاله.. إمعاناً في المهانة والحرب النفسية، وحتى ينهار بشكل سريع، ويعترف بكل شيء!

عزم على المغامرة والذهاب إليهم، فلن يخسر الكثير بعد الآن!

سمعَ أحدَهم ينادي باسمه، نظر إلى الخلف، فكانت المصادفة التي لم يحسب لها حساباً!

«**الملازم حامد.. مرحباً بك**»، قال العميد وليام!

ظهر الارتباك عليه، وتلعثم في رده، فلم يتأهب نفسياً لمثل هذا اللقاء، فهو لا يعلم حتى الآن هل افتضح أمره أم لا؟!

«**أشكرك كثيراً يا حامد على جهودك في التصدي للإرهاب، فقد قبضنا على المجموعة التي قمتَ بالإبلاغ عنها، وهم يقبعون الآن في سجوننا**»، ركزّ العميد وليام نظره في ملامح الملازم حامد التي بدت غير متزنة، ثم أردف: «**أشكرك مرة أخرى على هذه المبادرة، وأعدك بتسليمك وساماً تقديرياً من الحكومة الأمريكية.. في الحفل الذي سيقام بعد أسبوعين.. بحضور وزير الدفاع الأمريكي**».

جامله الملازم حامد بردٍ أظهر فيه تواضعه، ونسب الفضل له شخصياً، كان يُجاهد ليبدو طبيعياً قدر المستطاع، وليُخفي الارتباك الذي اعتراه، لم يكن متيقناً هل لاحظ العميد وليام تعرقه المفاجئ، والذي غمر جسده كله!

انقضى اللقاء التعيس بشكل أبطأ مما يتصور، ثم انطلق الملازم حامد مباشرة صوب السجن الذي يحوي رفقته، وقلبه لا يكاد

يستقر مكانه، كانت الحراسة مشددة.. فعلى المدخل فقط يوجد ثلاثة جنود أمريكان، حيّاهم.. وولج إلى الداخل، رآهم جميعاً.. القائد عمار.. كريم.. وأحمد، تجنب الحديث معهم بشكل مباشر، حتى لا يثير أي انتباه، مرّ من أمام زنزانتهم.. وأشار بيديه بطريقة عفوية، كانت شيفرةً تفيد أن الأمور على ما يرام، وموعد العملية سيكون في الوقت الذي خُطط له، تمنى ألا يكونوا قد عانوا كثيراً قبل وصولهم، فهؤلاء الأمريكان لا يعرفون معنى كرامةِ الإنسان!

كانت الإشاعة تسري في القاعدة كالهشيم.. بين مصدِّق ومكذِّب، فقد أصدر العميد وليام حُكماً بالإعدام على النقيب مرتضى، بتهمة قتل **الجنود الخمسة** في السجن!

لم يصدق الملازم حامد الخبر، فهو الذي قتلهم لا مرتضى، أيقن بأنها لعبة لاستدراجه، ولا بد له أن يحسب حسابها، فلا يمكن العميد وليام أن يقتل النقيب مرتضى، فهو صديقه المخلص، وكلبه المطيع.. كما يصفه البعض!

«**بقي الجزء الأصعب والدقيق، الساعة الثالثة فجراً.. موعدٌ مثاليٌ للغاية، إذا سارت الأمور بسلام.. فسيكون موعد انتقامنا الكبير**»، تمتم الملازم حامد.

أقلعتْ من مطار القاعدة طائرةُ هيليكوبتر أمريكية من طراز «أباتشي لونغباو»، كانت متجهة إلى عمق الصحراء بسرعةٍ تبلغ ٢٨٠ كيلومتراً في الساعة، وعلى متنها عدد من الجنود الأمريكان.. يحملون جثةً عارية لأحد العراقيين، قُتل برصاصتين، الأولى اخترقتْ عينه اليسرى، والثانية.. فوق سُّرته بقليل!

..، ولم يكن القتيل سوى.. «**النقيب مرتضى**»!

اتُهِم بالخيانة العظمى.. كان التقرير الذي رُفع للقيادة الأمريكية يشير إلى **ثلاث تهم رئيسية** وُجهت إلى النقيب مرتضى، **الأولى**.. توفير الدعم للإرهابيين أثناء تنفيذهم عملية نقطة التفتيش شمالي بغداد، **والثانية**.. محاولة قتل العميد وليام بواسطة شريحة تم زرعها في الملف الذي أحضره إلى مكتبه، **والثالثة**.. قتله خمسة جنود أمريكان أثناء حراستهم للسجن النسائي، وقد وُجد «سلاحه» ملقى في مكان الجريمة!

توغلت الطائرة في وسط الكثبان الرملية، قَصَدَ قائد الطائرة موضعاً يعرفه تماماً، قام الجنود بتغطية جثة النقيب مرتضى بكيس أسود كبير.. يشبه أكياس القمامة!

ثم..

ثم ألقوا جثته من ارتفاع شاهق.. وهم يتضاحكون!

٢٤

لم يُغادر الملازم حامد القاعدة هذه الليلة.. استعداداً للعملية الكبرى، بقي مرابطاً في مكتبه، يَرقُب حلول الثالثة فجراً، كان الوقت يسير ببطءٍ قاتل، ويُفاقِم من حِدة ارتباكه، كانت الخطة تقضي بتنفيذ العملية قبل انقشاع الظلام.. ليوفر ذلك غطاء أمنياً لهم، وليضمن وجود عددٍ أقل من القوات الأمريكية.

خرج الملازم حامد من مكتبه مُيمّماً صوبَ هدفه، دعا الله كثيراً بأن تنتهي عملية التهريب بسلام، كان يسير في ممرٍ طويل.. يقع السجن الموعود خلفه، ففضّل بأن يلتفّ حول المكان أولاً.. ليضمن عدم وجود ما يريب، فقد تعلم أن يكون حذراً جداً في جميع تحركاته.

اقتربَ من البوابة التي تؤدي إلى السجن، كان جندي الحراسة الأمريكي منشغلاً بالحديث مع مجندةٍ أمريكية، ويبدو أن الحديث كان حميمياً جداً.. إذْ إنهما لم يلتفتا إليه عندما ألقى التحية، استغل ذلك بالتوجه مباشرة لزنزانة رفاقه، كان السكون يحيط بالمكان، ولا أثر لأي شيء غير طبيعي!

نظر إلى القائد عمار، كان يبدو عليه القلق والترقب، لم ينم أحدهم إطلاقاً، ألقى عليهم تحيةً مُقتضبة، وبادرهم بابتسامة تشق الخافقين.. وهو يرى آثار كدمةٍ زرقاءَ تظهر على جبين أحمد،

غالبَ ضحكةً كادت تنفجر منه وهو يرى أحوالهم المزرية.. إلا أن هذه الضحكة ماتت سريعاً على شفتيه.. عندما نظر إلى كريم!

تذكّر أميرة، وما أصابها!

تردد في إخبارهم، إلا أنه لا بد من مواجهة الأمر الواقع عاجلاً أم آجلاً، وقد يكون إخبارهم الآن أخف وطئاً مِن أن يُصدموا بها لاحقاً.. كانت عينه لا تحيد عن الجندي الأمريكي الذي ما زال في حديث رومانسي مع خليلته!

خفضَ الملازم حامد ناظريه إلى الأرض، وأخبرهم بما حدث لأميرة باقتضاب، ثم.. لم ينبس ببنت شفة، إذْ ثرثر الصمتُ بعدها طويلاً طويلاً!

كان وقْعُ الخبر عليهم شديداً.. تسمّرت عينا كريم على الملازم حامد، وسالت منهما دمعتان خائنتان، جاهد كريم للتشبث بالقضبان الحديدية.. خشية أن يَسقط، تحاشى الجميع النظر إليه، فما بهم ليس أقل مما حل به، فمصابهم واحد، ورزيتهم واحدة!

«**أَطلبُ أن يتم التعديل على الخطة، فبعد أن نُتِمَّ تهريبها.. أريد أن أبقى في هذه القاعدة.. لا أريد أن أخرج منها بهذه السرعة!**»، قال كريم.

هز القائد عمار رأسه.. إيذاناً بالموافقة، ولم يكن يملك كلمةً واحدةً يواسيه بها!

تلقى الملازم حامد إشارةَ الإذن ببداية العملية، فتوجه على الفور ناحية الحارس ورفيقته، وجَّهَ رشاشه نحوهما، وهددهما بالقتل إذا لم يُلقيا سلاحهما فوراً، خرّ الجندي على الأرض.. غير مصدّقٍ

ما تبصره عيناه، اقتادهما إلى الداخل، ثم أمر المجندة بأن تُقيِّد رفيقها.

وصل إلى الخطوة الحاسمة، وشرع في فتح بوابة الزنزانة الإلكترونية، حاذَرَ ألا يقع في أي خطأ أثناء فتحها، تفادياً لصياح صفارات الإنذار!

أخرجهم جميعاً، وتنفّس الصعداء، فلم يضطر لإطلاق النار حتى الآن، أمرهم باتِّباعه لأخذ السلاح الذي أعده لهم.. قبل التوجه لأميرة.

«**استسلم يا حامد! ارفع يديك! ارفعها حالاً!!**»، كان الصوت يصرخ فيه بعنف.

تفاجأ الجميع باقتحام عشرة جنود أمريكان للمكان، كانوا يصوِّبون فوهات بنادقهم نحو الملازم حامد والبقية، ويقفون باستعداد لتلقي الأوامر، صرخ أحدهم في الملازم حامد بأن يلقي سلاحه.. وإلا فسيقوم بسحقهم في أقل من عشر ثوانٍ!

لم يكن الملازم حامد متأهباً للمواجهة، فقد وضع سلاحه على كتفه، وأي حركةٍ منه.. فستكون إيذاناً بهلاكهم جميعاً، ألقى سلاحه.. ورفع الجميع أيديهم كما طُلب منهم.

لقد وقع ما كان يخشاه، فتتابع الأحداث بهذه الطريقة يجعل من وقوعهم في المصيدة أمراً منطقياً، اقترب الجنودُ منهم بحذر، وقاموا بطرحهم على الأرض بعنف، ثم قيدوهم.. وأعين القناصة لا تخطئ الهدف!

دخل العميد وليام ضاحكاً، كانت قهقهاته تسبقه: «**يا للأسف.. لقد وقعتم في مصيدتي! وانتهى كل شيء!**»، قالها ساخراً.

تلاه بالدخول.. التاجر جاسم الجابي: «**من تظنون أنفسكم أيها الأبطال؟!**»، وأطلق ضحكة مدوّية، ثم وقف بحذاء الملازم حامد يتأمل فيه، ثم قام بركله بقدمه: «**يبدو أنك لم تكن حذراً بما فيه الكفاية يا سعادة الملازم.. فقد وقعتَ في عدد من الأخطاء الفادحة.. أيها العميل الوطني!**».

أمرَ العميد وليام بأن تتم إعادتهم جميعاً إلى الزنزانة.. وأن يتم وضع «الملازم» حامد في زنزانةٍ انفرادية بجوارها.

وجَّهَ العميد وليام إليهم نظرةَ احتقارٍ وازدراء، ثم قال: «**أشكرك يا حامد على إحضار رفاقك إلى هنا، فقد كنتَ أداةً أوجهها بيدي وأنت لا تعلم، فقد وقعتَ في أول أخطائك الفادحة حينما قمتَ بتغطية أميرة بعد أن اغتصبتُها، لا بد أن حميّتك الدينية قد ثارت، ولم تستطع كبحها!**»، نظر إلى التاجر جاسم ضاحكاً، وقال: «**المثير.. أن زوجها موجود هنا، ويظن أنه أتى لتمثيل دور البطل المخلِّص، وهو لا يعلم أنه أتى ليلقى حتفه!**».

بصق العميد وليام على وجه حامد، ثم قال: «**من تظن نفسك؟! هل تعتقد أنك بغبائك ستتغلب عليّ؟! إنني لم أصدقك عندما قمتَ بالوشاية برفاقك، إضافة إلى أنك كنتَ أحمق في تصرفاتك، فقد سرقتَ سلاح «النقيب» مرتضى لتوريطه، وقتلتَ جنودي، ثم.. يا لغبائك! ألقيتَه في مسرح الجريمة!**»، تحوّلَ صوته إلى النبرة العدائية.. عندما تذكر جنوده الذين قُتلوا: «**أي عقل تفكر به؟! ألا تعلم أن كاميرات المراقبة قد قامت بتصوير كل شيء! والطريف أيها الأحمق أنك قمت بتزوير التقرير الخاص بالجريمة.. ووضعتَ اسم مرتضى بدلاً عن اسمك!!**».

أخرجَ مسدسه من جرابه.. وشرع يستعرض به أمام الجميع، ثم

أردف: «**وعندما قابلتُك بعد قتلك جنودي بساعات.. كنتُ أقرأ الفزع في عينيك، وأرى ارتباكك بشكلٍ لا مجال للشك بعده.. فقمتُ بإصدار أمرٍ مباشرٍ بإعدام مرتضى!**»، كانت ضحكاته تدوّي في الأرجاء، ثمّ قال ساخراً: «**مرتضى المسكين.. يا له من كلبٍ مطيع، يبدو أنك تتساءل لماذا قتلتُه؟! إنني لم أشكّ فيه مطلقاً، فأنا أعلم أنه أغبى من أن يُدبِّر أي شيء من دون إذني، لقد قتلتُه استدراجاً لك.. لقد كان بحقٍ كبشَ فداءٍ مخلص، ولم أتردد في قتله مُطلقاً.. فكلاكما مطيّة لي!**».

صافَحَ العميد وليام جميع جنوده الذين أنجحوا هذه العملية، وأثنى على شجاعتهم، وتنفيذهم لخطته بشكل دقيق، ثم وعدهم بتكريمهم بشكل مُجزٍ، وكذلك بتقليدهم وساماً خاصاً من يد وزير الدفاع.

أطلق التاجر جاسم ضحكاته بشكل هستيري، وقال: «**أرجو أن يكون مطابقاً للوسام الذي وعدتَ به الملازم حامد!**»، ضحك العميد وليام وهو ينظر إليه نظرات إعجاب: «**أشكرك يا جاسم على وقفتك معي في هذه الظروف، فلولا المعلومات التي كنت تزوّدنا بها لما أتممنا هذا العملية**»

«**هذا من تواضعك يا سعادة العميد، وإلا فالفضل كله يعود لك، ولكن عندي طلب بسيط.. أرجو أن تأذن لي به**»، هز العميد رأسه موافقاً: «**أريد أن أنال شرف قتل هؤلاء الأوغاد بيدي! أريد أن أشفي غليلي منهم، فقد سببوا لنا كثيراً من الويلات، أفسدوا عراقنا، وأحالوه إلى كتلة لهب مُدمّرة، هؤلاء الإرهابيون لا همّ لهم إلا التدمير وسفك الدماء!**»

أخرج التاجر جاسم مسدسه من جيبه: «**أرجو أن تأذن لي بقتلهم جميعاً يا سعادة العميد، فلن أنسى أنهم كانوا سبباً في تدمير بلادي!**»

كان العميد وليام يبتسم لذلك، فلا أجمل من أن يقوم العراقي بقتل أخيه، وهو ينظر إليهما من بعيد!

رد العميد: «**كنتُ أود أن اقتلهم أنا بطريقتي الشهيرة.. طلقة في العين اليسرى، والأخرى في البطن! إلا أنني أتنازل عن ذلك لك يا جاسم.. ولكن أرجو ألا تقتلهم دفعة واحدة، دعنا نستمتع بهم واحداً واحداً، ولا تقتل «الملازم» حامد.. فلي معه حساب خاص!**»

كان القائد عمار والبقية.. في حالة ضعف وعجز، لا حيلة لهم، فقد انكشف أمرهم أمام العدو، ولم يعد بوسعهم فعل أي شيء.. سوى انتظار ما ستؤول إليه الأمور.. وليس سوى ذلك!

كان الشرر يتطاير من عيني التاجر جاسم وهو يصوّب مسدسه نحو القائد عمار، تأكد من إزالة زر الأمان، ثم أطلق رصاصة مرت بجواره ولم تصبه، تراجع للخلف.. حتى أصبح مُحاذياً للعميد وليام، ثم أعاد استهداف القائد عمار.. إلا أنه أدار المسدس فجأة نحو رقبة العميد وليام، ثم جذبه بقوة، واحتمى بجسده، ثم صرخ فيه بأن يُصدر أمراً لجميع جنوده بإلقاء السلاح.. وإلا قام بقتله فوراً!

«**قلتُ لك أصدر أوامرك لجنودك بإلقاء أسلحتهم!!**»، بُهتَ العميد وليام مما يجري حوله، فهو يرى نظرات جاسم النارية تكاد تَنفُذُ فيه، وليس ما يقوله من باب المزاح أبداً! أمرَ جنودَه بإلقاء أسلحتهم، وعدم المقاومة!

صرخ التاجر جاسم في وجه أحد الجنود، وأمره بأن يُقيِّد الجنود ثم يقوم بتقييد العميد وليام، امتثل لأمره بشكل سريع.

«نعم.. ربما أكون قد فاجأتك بالفعل أيها العميد، ولكنْ ما كان لك أن تثق بعراقيٍّ أبداً.. ولو أظهر لك ولاءه، فحب العراق متجذِّر في عروقنا، لقد كنتُ في ما مضى جشعاً أجمع المال وأمنعه، ومن أجل ذلك تخلّيتُ عن بعض مبادئي بموالاتكم، وقد أفقدني ذلك حب الناس وثقتهم.. وكل ذلك لا يعنيني بشيء، لأنني لم أتورط معكم في جريمة شرفٍ بحق عراقنا، لكن أن يصل الأمرُ إلى..»، وأشار إلى القائد عمار ورفقته: **«أنْ أخون ديني وبلدي.. فهذا مما لا يمكن أن أقترفه أبداً، لقد شككتُ في أمر الملازم حامد منذ البداية، فأنا أعرف والده بشكل جيد، ولا يمكن لمن تربى على يديه أن يصبح خائناً، تتبعتُ أمره بشكل دقيق.. وعرفتُ عنه كلَّ شيء، لقد رأيتُه وهو يدخل غرفة النعوش قُبيل عملية التفجير بقليل، فأكد كل توقعاتي!»**، نظر إلى الملازم حامد الذي ما زال مقيداً داخل الزنزانة، ثم قال له: **«أظنك يا حامد تذكر أمر الرسالة التي وجدتَها في مكتبك.. والتي كانت تُخبر بأن أميرة قد افتضح خبرها، وكذلك الرسالة الأخرى.. التي أُرسلتْ إلى كريم بشأن الخونة، لقد كنتُ أحاول أن أدعمكم في الخفاء قدر استطاعتي، وأرجو أن أساعدكم لإتمام هدفكم الذي جئتم من أجله!»**.

بدا العميد وليام غير مصدّق لما يحدث، كان يرجو أن يستيقظ من نومه ليجد خلاف ما يُبصر، اقترب منه التاجر جاسم، وقال: **«وليام.. الملازم حامد لم يسرق سلاح مرتضى، أنا الذي قام بإعادة سلاح حامد إلى مكتبه.. بعد أن وجدتُه ملقى بالقرب من السجن، ثم ذهبتُ إلى مكتب مرتضى، وأخذتُ سلاحه.. وبادلتُ بينهما! ومن ثم بادرتُ بتزوير التقرير.. بمساعدةٍ من بعض جنودك تحت إغراء المال، فهم مرتزقة مثلك! لقد كنت أحاول صرف النظر عن الملازم حامد!»**، ثم أردف بسخرية: **«إلا أنك كنتَ أذكى مما كنتُ أتصور!»**.

أصدر التاجر جاسم أوامره للجندي الأمريكي الذي قيّد جميع رفاقه بأن يقوم بفتح الزنزانة: «**لقد كنتُ أنتظر هذه اللحظة لأرد جميلي لكم**»، شرع الجندي الأمريكي في فتح القفل، وفي غفلة من الجميع.. قام بإدخال المفتاح بشكل معكوس، ثم ضرب القضبان الحديدية بكلتا يديه.. لتُطلق صفارات الإنذار صيحاتها المدوية في أرجاء القاعدة!

..، واختلطتْ كل الأشياء من جديد!

٢٥

بادر جاسم بتوجيه ركلةٍ للجندي الأمريكي، وأمره تحت تهديد السلاح أن يقوم بفك قيد القائد عمار، كان الارتباك ظاهراً على الجميع، فلا بد من الخروج من السجن بأقصى سرعة.. قبل وصول أي تعزيزات خارجية.

بادر القائد عمار بفك قيد كريم وأحمد، ثم قام بسحب الجنود الأمريكان إلى داخل الزنزانة، وأغلق عليهم الباب، بعد أن سلب منهم أسلحتهم، أما التاجر جاسم فقد اهتم بتخليص الملازم حامد من زنزانته.

توجه كريم على الفور صوب العميد وليام، كان سعير جهنم يتراءى في عينيه، ركله في بطنه بأقصى قوته، ثم قال: «**لن أقتلك الآن.. ولكنك ستصحبني في مغامرة قصيرة!**»

«**الآن سنتوجه إلى أميرة.. اتبعوني بسرعة**»، قال الملازم حامد.. وصفارات الإنذار تشحن الأجواء، تبعه الجميع نحو بوابة الخروج، تأكد من خلو المكان من أي أحد، وتأكد كذلك من تسليح الجميع، كان كريم يقود العميد وليام بشعره، ويفكر في طريقةٍ يشفي بعضاً من غليله.

قال التاجر جاسم: «**أرجو بأن تأذنوا لي.. فلدي مهمة خاصة لا بد أن أنجزها الآن!**»، تركهم.. وتوجه ناحية مكتب العميد وليام!

«**فلْيحفظك الله يا جاسم!**»، قال الملازم حامد، وهو لا يعلم كيف يستطيع رد الجميل إليه!

عَمّت الفوضى أرجاء القاعدة، وبدأ الجميع يتساءل عن سبب صياح صفارات الإنذار في مثل هذا الوقت المتأخر، فلم يسمع أحدٌ أي استهدافٍ صاروخي حتى الآن، والأمور هادئة جداً!

أشار نظام المراقبة في مركز العمليات إلى أن مصدر الإنذار ينبعث من ناحية السجن، تأكد أحد الجنود الأمريكان من شاشات المراقبة، كل شيء على ما يرام، ولم يلحظ ما يلفت الانتباه، أدار كاميرات المراقبة المثبتة في أنحاء السجن لتُظهر ما يحدث داخل الزنزانات.. نظر إلى الأولى.. الثانية.. ثم.. صرخ بأعلى صوته، وبادر بالإعلان عن حالة الطوارئ من الدرجة الأولى!

اقترب الجميع من سجن أميرة، أرادوا أن يَصِلوا إليها بأقصى سرعة، فالوقت يتسارع، والقوات الأمريكية ستبدأ بالتوافد بأعدادٍ ضخمة، استبشر الملازم حامد.. فلم تكن هناك حراسة مشددة على السجن، إذْ جرت العادة بأن يقوم جندي واحد بحراسة المدخل، بالإضافة إلى جنديين آخرين يراقبان الزنزانات من الداخل، فما زال السجن حديثاً، ولم يوضع فيه سوى أميرة وعدد محدود من المعتقلين، أمر الملازم حامد رفقته بأن يتريثوا قليلاً.. فقد جاء دوره!

«**طاب صباحك.. جون**»، قال الملازم حامد لجندي الحراسة.

رد الجندي بفزع: «**مرحباً حامد.. هل تعلم سبب صياح صفارات الإنذار؟!**»

«**لا تقلق.. فقط فرقعاتٌ من بعض الإرهابيين، لا عليك.. الأمر أتفه**

من أن تُعيره أي اهتمام!»، كان الخوف يتقافز من عينيه، أضاف الملازم حامد: «**اقتحام فاشل!**»

دخل الملازم حامد داخل السجن، وتبعه الجندي بفضول ليعرف تتمة القصة، نادى على رفيقيه: «**لقد قام أحدهم باقتحام القاعدة!!**»، أقبل الجنديان والهلع والفضول يكاد يقضي عليهما!

تأكد الملازم حامد من خلو المكان من أي جنود آخرين، وبدأ في سرد قصة مُختلقةٍ عن إرهابي حاول اقتحامَ القاعدة، فتصدى له أحد الجنود الأمريكان، والذي لم يكن يملك إلا مسدساً فقط!، قام الملازم حامد بتمثيل دوره.. فأخرج مسدساً كاتما للصوت كان قد جهزه لهذه المرحلة، وأخبرهم بأن هذا الجندي هدد الإرهابي بالقتل.. ووقف مثل وقفته.. تراجع الملازم حامد للوراء، والجنود الثلاثة يستمعون إليه بتركيز شديد، ثم.. ثم أطلق وابلاً من النيران نحوهم جميعاً، فأرداهم في أقل من عشر ثوانٍ، وأخذ المفاتيح منهم!

كان القائد عمار على أهبة الاستعداد لاقتحام السجن لو فشل الملازم حامد بخداع الجنود، تعلّم أن يضع خطة بديلة لكل عملية يقوم بها.. فالمفاجآت لا تنتهي أبداً، إلا أنه تنفس الصعداء عندما رآه يُشير إليهم بالقدوم، توافدوا نحوه سريعاً، وما زال كريم يُجرجر العميد وليام من شعره.. في غفلة من القوات الأمريكية التي لم تنتبه لهم بعد!

اندفعوا مباشرةً نحو زنزانة أميرة التي تقع في الجهة الخلفية من السجن، عليهم أن يعبروا الممر ثم يتوجهوا لليسار.. إلى الزنزانة الثالثة، كان الجميع في ترقب، لا يعلمون ماذا تخبِّئ لهم الأقدار،

عليهم الإسراع قبل أن تتم محاصرتهم في السجن. . الذي سيكون بلا شك مدفنهم الأخير، خفق قلب كريم بصورة لم يشهدها من قبل، فقد اقترب من أميرته، يعلم أنها ستتحرج من النظر إليه، وربما ستنهار باكية، فقد سُلبتْ أغلى شيء تملكه، كان يُدرك مشاعرها، ويوقن بأن وقع ذلك سيكون شديداً عليها. . إلا أنه ليس لديه خيار آخر!

تأخر الجميع عنه. . إجلالاً لخصوصية الموقف، وتهيباً من أن يُتكشّف من عِرضه شيء!

وحْدهُ انفرد بالمعاناة، واختلى برائحة الحزن، اقترب من قضبان زنزانتها، يراها ضبابية، خانته عيناه، بالكاد رأى موضع القفل، أَدخل المفتاحَ فيه، أخطأه غير ما مرة، يده ترتعش، والعرق يغمر وجهه ويديه، أحس بجائحةِ فزعٍ تتسلط عليه، وتشلّ تفكيره، كان يرى أميرته مستلقية على جنبها الأيسر، ومتوجهةً نحو الحائط، خاف أن يناديها فتتحرج من قدومه، نطقَ اسمها بصعوبة، أحسه غريباً بين شفتيه، اقترب منها، وهموم العالمين تعتريه.

اختلى كريم بأميرته، لحظات موحشة، لا تحتملها قلوب المحبين، ما أقسى اللقاء حينما يكون مُترعاً بالحزن. . ومُثقلاً بنُسيمات الأسى!

«أميرتي! أنا كريم!».

اقترب منها أكثر، تملّكته حيرة عظيمة، ماذا سيقول لها؟! وبأي حديث سيبدأ؟!

أخيراً قال مواسياً: **«أميرتي.. أنتِ في عيني كما كنتِ أول مرة، فأنتِ العفيفة.. أنت الشريفة.. لم يتغير شيء»**.

«صدِّقيني يا أميرة.. لم يتغير شيء، أقسم إنك أطهر امرأة في الوجود»

وضع يده على كتفها، أمسك يدها، باردةً كانت، تحسسها بخده، لم تكن تتحرك: «**أميرتي!!**»، ناداها بصوتٍ مخنوق، تمنى ألا يَصدُق حدسه، فقد نبّأه بسوء، تأكد من نبض قلبها، وضع يده على رقبتها.. لا شيء!

تأكد من عِرقٍ آخر.. لا شيء!

«حبيبتي..!»

خرّ على ركبتيه، هزّها.. حرّكها.. وضع يده على صدرها.. لا شيء!

ضَمّ أميرته بقوة، كاد أن يصرخ، أن يحطم كل شيء، انسابتْ دموعه على خده من دون توقف، بكى لفراقها، في داخله بركانٌ يستعر: «**أميرتي! قتلوكِ.. قتلهم الله!!**»

رأى جسدها الطاهر وقد أثقلته الجراح، وعاثَ نهشُ الكلاب في كل موضعٍ منه، وبدد ذلك كل حُسنٍ ورقةٍ فيه!

كان جسدها يزداد بياضاً، وجمالاً، كان ينبعث منه نور عظيم، أضاء ما حوله.. أو ربما خُيِّل إليه ذلك!!

لا أصعب من مشاعر الزوج حينما يرى حُبه يذبل بين يديه، تدوسه الأقدام، تسحقه! كريم.. يرى أميرته مسجاة أمامه، قلبها.. يُحس به، يتلمّسه، لقد كان ملاذه وسكنه ذات يوم، كانت أحلى سني حياته، وأمتعها، وأجملها، ثم.. ثم خسر في لحظة كل شيء!

ما أتعس الدنيا حينما تكشف سوءتها أمام الضعفاء!!

تنبّه لوجود ورقةٍ كانت بالقرب منها، تناولها بتردد، تعرّف على الخط، ليس سوى خطها!

استقام في مكانه.. وهو يقرأ:

«كريم.. أعلم بأنك ستأتي.. ولكن.. أشعر بأني لن أراك!

كريم.. أنا عراقية.. أنا عربية.. أنا مسلمة..

أنا طاهـ.. ـهرة!

فاسترني بعد موتي.. (أميرة)».

كَتبتْ.. وقد خنق مدادها صمتٌ طويل!

٢٦

وصل جاسم إلى مكتب العميد وليام، حيّاه بعض الجنود الأمريكان، بادلهم بابتسامةٍ صفراءَ فاقعة، دخل المكتب بشكل مباشر، لم يُثر وجوده أي اشتباه، فهو يتردد على العميد دوماً، ولا يحتاج لإذن أحد، فقد كان يجمع بينهما مصالح مشتركة، ولم يكن يجرؤ أحدٌ على أن يتعرّض لأصدقاء العميد وخاصّته!

أغلق رتاج الباب خلفه، وشرع في البحث بشكل عشوائي، بعثر كل الأشياء، فتح كل الأدراج.. حتى وجدها مستقرةً بكل خسة وحقارة!

أمسكها بكلتا يديه.. كاميرا التصوير التعيسة! تلك التي استخدمها مرتضى في تصوير أميرة أثناء اغتصابها!

أخرج الفيلم الذي بداخلها، وقام بتحطيمه، ثم حطم الكاميرا فوقه، تأكد من عدم وجود أي فيلم آخر، ثم توجه نحو حاسب العميد الشخصي، فكر في تحطيمه.. إلا أنه خشي أنّ الصور المحفوظة بداخلة لن تتضرر، وضع الحاسب سريعاً فوق الكاميرا المحطمة وبقايا الفيلم، وأحاطها بكمية كبيرة من الأوراق.. وبادر بإشعالها!

. . ، وكانت هذه هي مُهمته التي خاطر من أجلها، وكانت مهمة تستحق العناء بالفعل!

حمل كريمُ أميرته بين يديه، وحمل بقاياه معها، كان يسترق إليها النظرات، يرى وجهها الوضّاء. . ضفائرها. . جراحها! لقد اعتلت البأساءُ عرشها، وشرعت في نشر الظلمة في كل الدروب!

طيور العراق هاجرت!

وما عادت تُطيق البقاء! فقد شحب في العراق كل شيء، حين احتله البغاة، وأعانهم عليه قوم آخرون!

أزاح كريم سلاحه حتى لا يؤذيها، يجب أن يُخرجها حالاً قبل قدوم الجنود.

«**إلى الشاحنة.. إلى الشاحنة بسرعة**»، قال الملازم حامد.

تَبِعه الجميع، تكفّل أحمد بأمر العميد وليام، أما كريم. . فقد فضّل أن يسير بأميرته خلف الجميع، هكذا شاء. . حتى يصون كرامتها ولو بعد وفاتها، كان يُتابع النظر إلى وجهها، أحس بأنه يحبها أكثر من أي وقت مضى!

خرجوا من بوابة السجن من دون أن يعترضهم أحد، بقي أن يقوموا بالالتفات حول سور السجن. . ليجدوا السلاح والشاحنة في انتظارهم، ما زالت صفارات الإنذار تدوّي في الأرجاء، وعدد من الجنود يسلّطون كشافات الإضاءة على كل مكان. . وثلاث طائرات هيليكوبتر تبحث عنهم بشكل دقيق، بدأتْ خيوط الفجر الأولى تنبلج بشكل متسارع، لا بد أن يُتموا عملية التهريب قبل حلول النهار. . وإلا استحالتْ مهمتهم ضرباً من المستحيل!

«**هذه هي الشاحنة**»، أشار الملازم حامد بيمناه، كانوا يسيرون بحذاء السور الذي يُمثل حمايةً جانبية لهم من أي استهداف.. عليهم أن يعبروا منطقةً مكشوفة طولها ٨٠ متراً.. قبل وصولهم إلى الشاحنة.

انطلق الملازم حامد نحو الشاحنة.. أمر البقية أن يتريثوا لحين تأكده من سلامة الطريق، كان منحني الجذع، لا تهدأ عيناه من الحركة، يجب أن يكون حذراً بشكل كبير، رأى طائرةَ هيليكوبتر تُحلق على ارتفاع منخفض، توجه هيكل الطائرة نحوه، لقد كُشف أمره سريعاً.. فهي مزودة بكاميرات تمكّنها من الرؤية الليلية.. بواسطة الاستشعار الحراري!

بادر بالانسحاب نحو رفاقه.. والطلقات النارية تلاحقه، أصيب في كتفه برصاصة طائشة، بادر القائد عمار بإطلاق النيران نحو الطائرة، كان يحمل رشاشاً من نوع M240 عيار ٧,٦٢ ملم، استهدف قُمرة القيادة بشكل مباشر، فما كان من قائد الطائرة، إلا أن بادر بالانسحاب.

توافدت القوات الأمريكية بكثافة إلى المنطقة التي يتحصّن فيها المجاهدون، مكبرات الصوت تطالبهم بالاستسلام من دون أية شروط، اعترضتْ المصفحات كل الطرق التي يمكن أن يهربوا منها، والقناصة يترصدون في أسطح البنايات، وجنود المارينز المدججون بالسلاح يتأهبون للمواجهة.

شاور القائد عمار رفقته.. أصروا على المواجهة، وعدم الاستسلام، فالوقوع في الأسر يعني العيش تحت خط الكرامة، ويستحيل على المجاهد أن يتحمل عبء ذلك، فقد رُبِّي على أن

يكون عزيزاً دوماً، تبايعوا بيعة الموت الأخيرة، وتعاهدوا على المقاومة حتى آخر رمق.

قام القائد عمار بتوزيع أدوارهم بعناية.. كلف كريم بحمايتهم من الخلف، وأمر الملازم حامد بالتمركز معه في المقدمة، أما أحمد فستكون مهمته إتلاف جميع الإضاءات، واستهداف أي طائرة تقترب من محيطهم.. بالإضافة إلى مراقبة العميد وليام!

«**على بركة الله**»، قال القائد عمار.

ابتدأتْ المواجهة الحقيقية بتكبيرات المجاهدين، وبدأ الطرفان في تبادلٍ عنيف لإطلاق النيران، استهدف أحمد إحدى الطائرات التي كانت تحاول كشف تحركاتهم، انسحبتْ مرة أخرى.

وضع كريم أميرته بجوار الحائط، وتوجه مباشرة نحو العميد وليام.. وكل ذرةٍ فيه تدفعه لينتقم، صَوّب رشاشه نحوه، أمره بأن يستقيم على قدميه، ثم يتقدم للأمام، لم يكن يعلم العميد إلى أين يُسار به، كان في وضع حرج، لم يعد يستطيع الحديث، ولا التوسل.. ولا حتى البكاء!

أمره كريم بأن يخلع قميصه.. ثم يتوجه صوب معسكر الأمريكان.. مروراً بساحة المواجهة!

«**لا أريد أن تموت بسرعة.. هيا تحرك أيها الحقير!**»، قال كريم.

تردد العميد وليام، فهو يرى المعركة تطحن كل شيء.. وتحيله رفاتاً، فكيف سيمكنه المرور على جهنم؟!

صرخ كريم: «**تحرك أيها السافل!**»، كان يدفعه ليقتحم المكان من دون فائدة، أطلق رصاصة على قدمه.. فسقط صارخاً، هدّده بأنه سيستهدفه عضواً عضواً إن هو لم ينفذ أوامره!

أطلقتْ القوات الأمريكية غازات خانقة باتجاه المجاهدين، خلع القائد عمار قميصه وتلثّم به.. كأفضل طريقة احترازية ممكنة، ثم حذا حذوه الآخرون!

لم يرغب كريم في أن يُضيع وقته مع العميد، فقام بدفعه بأقوى ما يستطيع نحو ساحة المواجهة، ثم أطلق نيرانه بجوار قدميه، فرّ العميد من طلقات كريم.. ليقع تحت رحمة بنادق جنوده! أصبح مكشوفاً أمام الطرفين، حاول العميد الانسحاب للناحية الأخرى.. صرخ في جنوده بأنه هو العميد وليام، كان يُشير بيديه ليوقفوا إطلاق الرصاص! صرخ بأعلى صوته.. ترجّاهم!

«أنا العميد وليام فرانك.. لا تطلقوا النار.. أرجوكم.. أنا.. أنا..»

أطلق القناصة وابلاً كثيفاً من النيران ناحية الشخص الأعزل الذي خرج بشكل غريب من ناحية المجاهدين.. فسقط العميد صريعاً، أَتبعه كريم بعده طلقات.. حطّم بها جمجمته بشكل كامل، وأزاح شيئاً يسيراً من سعير رغبته الملحّة في الانتقام!

وفي تلك الأثناء..

تفاجأ الأمريكان بطلقاتٍ نارية تستهدفهم من الخلف!

أصبحوا بين نارين! ولا يعلمون من أي جهة تتساقط عليهم حجارةُ السجيل!!، فلا يمكن الإرهابيين أن يقتحموا القاعدة ليقوموا بمحاولة إنقاذ رِفَاقهم!

اختلّتْ صفوف القوات الأمريكية، وبدأت الفوضى تعم ساحة المواجهة، بدأ الجنود في الهرب في كل اتجاه، توالت صرخات النجدة والاستغاثة!

تعجب القائد عمار مِنْ هذا المدد الذي زلزل أعداءه، إلا أنه بادر بتكثيف نيرانه نحو الجنود الفارين، فليس مُهماً أن يكتشف السبب الآن!!

استغل الملازم حامد حالة الفوضى التي حلّت بهم، فقام بإلقاء قنبلةٍ دخانية في منتصف المسافة التي تفصلهم عن الأمريكان.. وبادر بالتوجه نحو الشاحنة، رآه العقيد جورج.. الذي كان يُقود القوات الأمريكية، أمَرَ قائدَ الطائرة بأن يقوم بقصفه بصواريخ «هيل فاير».. التي تُستخدم عادةً لتدمير الدبابات!

تم إطلاق صاروخين على الشاحنة التي استقلها الملازم حامد.. فاستحالت حطاماً، وبدأتْ في الاحتراق، أحد الصواريخ استهدف حامد بشكل مباشر..

أصابته في مقتل، تهشمت جمجمته تماماً، جسده تناثر هنا وهناك، أما روحه.. فقد فاضت سريعاً.. كأسهل، وأطهر ما يكون!

تنبه أحد القناصة الأمريكان لمصدر النيران التي استهدفتهم من الخلف، لقد كانت تنبعث من نافذة مكتب العميد وليام، لم يصدِّق عينيه وهو يرى.. التاجر جاسم الجابي يفعل فعلته!

عاجَلَه بعدة طلقات.. خرّ بعدها جاسم صريعاً وسط دمائه التي تناثرت في كل مكان، وصارت شاهداً حياً على كرامة الأحرار!

أصدر العقيد جورج أوامره لطائرة الأباتشي أن تَستهدف البقية بالصواريخ، لم يكن يريد الاضطرار إلى استخدام هذا الأسلوب العنيف.. إلا أنّ نمط المواجهة التقليدية لم يعد يجدي نفعاً، ولا بد أن يضع حداً لذلك، فسمعة قواته باتت على المحك!

أُطلق الصاروخ الأول.. ثم الثاني.. فقُتل القائد عمار مباشرة!

ولم يبقَ من المجاهدين سوى أحمد وكريم، لم يتوقفا عن المقاومة، إلا أن ذخيرتهما بدأت تتناقص تدريجياً.

وفي غفلة منهما.. قامتْ إحدى الطائرات بالالتفاف من خلفهما.. فانكشف أحمد أمام نيرانها، حاول الالتفات لاستهدافها.. إلا أنهم أردوه قتيلاً قبل أن يتمكن من ذلك!

قَصفتْ الطائرةُ الجهةَ التي يتحصّن فيها كريم بعدة صواريخ، فانهار سور السجن بفعل قوتها المدمرة، وكان كل شيء يشتعل، توقفت الطلقات التي كانت تصدر من ناحية كريم، وبدأ المكان يستعيد هدوءه تدريجياً.

وقف العقيد جورج محدّقاً بذهولٍ في آثار الدمار، وهو لا يكاد يصدّق ما يحدث، أيقن منذ البداية بأن المواجهة محسومة النتائج، فلا مجال للمقارنة بين الكفتين.. إلا أنه لم يكن يتصور بأنه سيضطر لاستخدام كل هذه الأسلحة ضدهم!

قال لمساعده: «**لقد انتهت المعركة**»، ثم أردف بعد صمت طويل: «**لقد هزمناهم بالفعل.. ولكنني أقسم بأننا لن نستطيع هزيمة البقية!**»، خلع خوذته.. وكاد أن ينحني احتراماً لهم.. إلا أنه خشي من النظرات الفضولية التي كانت تحيط به، ثم قال: «**أعطوني.. جيشاً من أمثال هؤلاء.. وسأحكم بهم العالم!**».

وصل الفريق الطبي.. انتشلوا ثلاث جثث، متفحمةً كانت، توجهوا ناحية المكان الذي كان يتمترس به كريم، سمعوا صوت شيءٍ يتحرك ببطء، تراجع الفريق الطبي مباشرة، واقترب أحد الجنود ليستطلع

الموقف: «**يبدو أن أحدهم ما زال فيه رمقُ حياة!**»، صاح الجندي، ثم تراجعَ للخلف، كان كريم ينزف بغزارة، يُصارع آلامه، لكنه ما زال يحتضن رشاشه.. أَطلقَ على الجندي عدة رصاصات أخطأته.. فبادر بالانسحاب فوراً.

انطلق صاروخًا «هيل فاير» من الأباتشي.. صوب مصدر النيران، توجّهَا بشكل مباشر صوب كريم!

جسد أميرة.. كان خلفه!

تباطأ الزمن، جسده تبلل بالعرق، سمع صوتاً يألفه، حركته تقيدت، أغمض عينيه، اِلتحم جسده بالأرض، امتزج بترابها، لم يعد جزءاً منه، أحس بأنه يرتفع، يعلو على كل شيء، خفيفاً صار، أميرتُه.. يتراءى خيالها فوقَه، تضحك له، تناديه بدلال، تستحثه على اللحاق بها!

كانت جثة أميرة ممدةً خلف جثته، تناثرتْ أشلاؤه وأشلاؤها.. كانا يراقبان ذلك من علوٍ شاهق.. ويتعجبان!

رأى عمار، والبقية.. كانوا يُبادلونه التحايا، لمح جاسم بالقرب من حامد.. ترافقا هذه المرة!

ابتسَم كريمُ لأميرته.. ثم..!

ثم.. غابا في السماء!

: :

كانت جنازتهما مشهودة، دُفنا في مقبرةٍ واحدة، كان جسد كريم يرقد بجوار أميرته.. كأهنأ، وأطيب ما يكون.

وهنالك..

على بُعد عشرات الكيلومترات..

وفي مركز الأبحاث السري، وسط بغداد؛ كان «العميل ١» والبقية.. يحتفلون بتدشين الجيل المتطور من تقنية الشرائح الذكية..

الذي أطلقوا عليه بالإجماع.. اسم: «**أميرة ٢**».

تمت